دفاتر التاريخ — ٥

أكاديمية العلوم السوفياتية

دور الجماهير الشعبية في التاريخ

ترجمة - د. بدر الدين السباعي
د. نجاح الساعاتي
مراجعة - يوسف حلاق

سلسلة العلوم الاجتماعية

الفارابي

دار الجماهير الشعبية - دمشق

سلسلة العلوم الاجتماعية

دفاتر التاريخ

المرحوم / يوسف درويش
القاهرة

إهـــــــداء ٢٠٠٦
المرحوم / يوسف درويش
القاهرة

اكاديمية العلوم السوفياتية

دور الجماهير الشعبية في التاريخ

ترجمة - د. بدر الدين السباعي
د. نجاح الساعاتي
مراجعة - يوسف حلاق

دار الفارابي
بيروت - لبنان

١٩٨٢

دار الجماهير
الشعبية - دمشق

АКАДЕМИЯ НАУК СССР
ИНСТИТУТ ФИЛОСОФИИ

РОЛЬ НАРОДНЫХ МАСС И ЛИЧНОСТИ В ИСТОРИИ

Государственное издательство
ПОЛИТИЧЕСКОЙ ЛИТЕРАТУРЫ
Москва · 1957

دار الفارابي
بيروت ـ ص. ب. ٣١٨١
الطبعة الأولى ١٩٨٢

دار الجماهير الشعبية ـ د
شارع الجمهورية بناية التل
ص. ب. ٢٨٢٤ تلفون ٣٧

دور الجماهير الشعبية في التاريخ

ان قضية دور الجماهير الشعبية في التاريخ هي احدى القضايا الأساسية في النظرة الماركسية اللينينية عن العالم، وفي علم المجتمع، وهي، بالاضافة الى ذلك، احدى القضايا الجذرية في سياسة الحزب الشيوعي.

وحول قضية دور الجماهير الشعبية في التاريخ دار ويدور ولا سيما في عصرنا، عصر الثورة الاشتراكية صراع ايديولوجي سياسي ضارٍ بين قوى التقدم وقوى الرجعية.

١ - علم الاجتماع السابق للماركسية ودور الجماهير الشعبية في التاريخ.

كان ماركس وانجلس أول من أوضحا دور الجماهير الشعبية كصانعة للتاريخ، وأول من اتبعا ذلك علمياً. وحين طبق هذان العالمان نظرية المادية الجدلية على ظاهرة الحياة الاجتماعية، اوجدا المادية التاريخية، أي علم القوانين العامة لتطور المجتمع. لقد تغلبت المادية التاريخية، نهائياً، على نفي دور الجماهير الشعبية في التاريخ وعلى الاقلال من شأنه، وأبانت دورها الحاسم في تطوير المجتمع الى الأمام.

لقد سادت علم الاجتماع السابق للماركسية نظرة مؤداها ان التاريخ لا تصنعه الجماهير الشعبية، بل بعض الافراد البارزين، من أبطال، وملوك، وعسكريين، ورجال التشريع والمخترعين، والعلماء، والفلاسفة الخ... هذه النظرة لم تر الجماهير الشعبية في حقيقة الامر الا كموضوع لنشاط العسكريين والمشرعين، او كأداة عمياء بيد الروح العالمي، والعناية الالهية، وليس كعنصر ذاتي مستقل في التأثير التاريخي، الذاتي المستقل.

هذه النظرة التي تنفي دور الجماهير الشعبية في التاريخ لا زالت حية لارتباطها بجذور طبقية ومعرفية. ان الاساس الاجتماعي لهذه النظرة هو انقسام المجتمع الى طبقات مستثمِرة، ومستثمرة والاضطهاد الذي تعاني منه جماهير الشغيلة، وقد انتشرت تلك النظرة وتوطدت في وعي الناس/ خلال مئات السنين، وعلى امتداد تاريخ التشكيلات الاجتماعية التناحرية الثلاث: تشكيلة عهد الرق وعهد الاقطاع والعهد الرأسمالي.

أما الجذور المعرفية لتلك النظرة فتكمن في الفهم المثالي للتاريخ، الذي يعتبر الافكار، القوة المحركة الحاسمة الأساسية في تاريخ المجتمع، وليس شروط حياة الناس، المادية، وليس تطور اسلوب الانتاج. هذه النظرة أوجدها ايديولوجيو الطبقات المستثمِرة: اصحاب الرقيق، والاقطاعيون، والبرجوازيون، وكذلك صغار البرجوازيين. كان رجال العمل الفكري ممثلو الطبقات القائدة، ينظرون الى أفكارهم ونظرياتهم، ونظراتهم السائدة في المجتمع، على أنها الحاسمة في التاريخ. كانوا يرون ان الافكار هي التي توجه نشاط الناس، ولكنهم لم يفهموا ان الافكار، والنظريات، والنظرات، ليست بذاتها، غير نتاج الشروط المادية لحياة الناس وانعكاسها.

هذه النظرات المثالية الرجعية التي تنكر دور الجماهير الشعبية المستقل، التقدمي، الخلاّق في صنع التاريخ، أو التي تقلل من هذا الدور أو تحط منه، هذه النظرات وجدت على أيدي الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والاقتصاديين والمؤرخين، الذين ترعرعوا في تربة المثالية الفلسفية والتي

كان الدين أعظم تطوير دؤوب لها. فأفلاطون الفيلسوف المثالي، ورجال لاهوت القرون الوسطى توما الاكويني وغيره، والاسقفان يوسوبي، وبركلي، وجوزيف دوميستر، والفلاسفة المثاليون المعاصرون اتباع أفلاطون، واتباع توما الاكويني، وبركلي وجوزيف دومنستر، والهيغيليون الجدد، والكانتيون الجدد، والبراغماويون، وغيرهم. كل هؤلاء ينظرون الى الشغيلة كجماهير سلبية معارضة ومعادية للروح، والفكر، والمدنية، والثقافة وعاجزة عن القيام بدور مستقل بنّاء في التاريخ.

لقد صور اللاهوتيون اوغسطين، وتوما الاكويني، والقسيس يوسوبي، التاريخ كحقيقة «للارادة الالهية» الحكيمة، والشعوب - أفعالها ونضالها - كاداة لهذه «الارادة الالهية» العجيبة. اما مصائب الانسانية، والآلام التي تعانيها الجماهير الشعبية في ظروف التشكيلات الاجتماعية التناحرية فيفسرها هؤلاء اللاهوتيون، على أنها من فعل الشيطان الذي يجهد في اغواء الشعوب عن الطريق الالهي الحقيقي، وعلى انها عقاب ينزله الله بالناس «لذنوبهم»، لا سيا حين تسعى الجماهير الشعبية الى التحرر من العبودية، والى الوقوف ضد مضطهديهم ومسترقيهم. ان نظرات اللاهوتيين لا ترتدي اي طابع علمي، ولهذا فنحن لا نتوقف عندها الآن.

بيد انه وجد في صفوف المثاليين مع هذا بعض المفكرين أمثال «فيكو، وروسو»، الذين ربطتهم روابط قوية بالجماهير الشعبية، وأشاروا الى دورها التقدمي في الحياة الاجتماعية.

لقد عاش فيكو وكوّن نظراته في ايطاليا، في المرحلة التي تأجج فيها غضب الجماهير الشعبيه ضد الاضطهاد القومي الاجنبي والاضطهاد الاجتماعي. وطور في نظريته فكرة الدورات الاجتماعية. وفضلاً عن ذلك فقد انطلق من الفكرة الدينية القائلة بأن العالم انما يسيره «عقل علوي» هو اسمى من عقول الناس والامم، ويحدد مسيرة التاريخ. وتعاطف فيكو تعاطفاً عظيماً مع نضال طبقة العامة ضد الأشراف والارستقراطيين، واشار الى دور الجماهير الشعبية لا في تطوير الدولة فحسب، بل وفي الحياة الروحية أيضاً، وخاصة في الملاحم الشعرية.

أمَا روسُّو فقد عاش وتكون عشية الثورة الفرنسية البرجوازية (١٧٨٩) وطورَ فكرة سيادة الشعب، وحقه في تغيير نظامه الاجتماعي والسياسي، وفي الانتفاضة ضد مضطهديه ومستعبِديه.

لقد وجه ايديولوجيو البرجوازية الثورية المُمثَّلون في منوري القرن الثامن عشر الفرنسيين، انتقاداً شاملاً للنظام الاقطاعي وايديولوجييه، وسخروا من الملوك الاقطاعيين ووصموهم بالاستعباد والاضطهاد واعلنوا شعار الحرية، والمساواة، والاخوة. ومع هذا لم يعتبروا الجماهير الشعبية صانعة للتاريخ ،وخالقة له، بل موضوعاً له أيضاً. كان تاريخ الانسانية على امتداد العصور، حسب وجهة نظر منوري القرن الثامن عشر، «تاريخ اضطهاد تقحم به جماعة من المختلسين المحتالين» كما يقول ديديرو. ان واقع اضطهاد جماهير الشغيلة يبرز هنا بشكل صحيح. الا ان المنورين لم يكونوا يرون سبب العبودية والاضطهاد في الشروط الاقتصادية لتطور المجتمع، بل في جهل الجماهير الشعبية «فالاضطهاد هذه المصيبة الانسانية القاسية، انما، هو، قبل كل شيء، نتاج الجهل الشعبي. كل شعب حر في البداءة. ولكن كيف نفسر فقده لحريته هذه؟ ان التفسير يكمن في جهل هذا الشعب، في ثقته الحمقاء بالطامعين». كما يقول المادي هيلفيتس. لهذا يكفي، حسب رأي المنورين، ان نعلِّم الناس، حتى تسيطر الحرية، والمساواة والاخوة. ولكن من هو الذي يتوجب عليه تعليم الناس؟ لا شك ان المعلمين هم المتعلمون والمنورون، والمثقفون، ومن تلهمهم ارادة المشرعين الحكماء. ومن هنا يتأتى تعليق آمال الكثير من المنورين على الظروف السعيدة، على ظهور الرجل العظيم الملك المتنوِّر.

كانت النظرة المثالية البرجوازية ملازمة للمنورين الفرنسيين، وهي النظرة الذاهبة الى ان الجماهير الشعبية «الجاهلة» غير مؤهلة للخلق التاريخي الذاتي، وهي جماهير يقودها الناس المنورون. «والفكر يحكم العالم» كما يعلق المنورون الفرنسيون. ومن هنا يتأتى الاستنتاج المنطقي القائل بأن «صانعي التاريخ هم الناس المنورون الذين لا يجد الشعب محيداً عن اتباعهم، «بشكل جماعي».

لقد وجهت نظرات المنورين البرجوازيين ضد النظام الاقطاعي، والدولة الاقطاعية وضد الدين، والكنائس. ولهذا كانوا يتمتعون آنذاك بأهمية ذات طابع تقدمي. الا ان هذه النظرات المتعلقة بتاريخ المجتمع اذا ما اخذت من وجهة النظر العلمية، تبدَّت غير صحيحة، ومثالية، ومرتبطة بما وراء الطبيعة.

أما النظرات الاجتماعية التي حملها الاشتراكيون الطوباويون، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فهي قريبة كلياً من أفكار منوري القرن الثامن عشر إلا ان الاشتراكيين الطوباويين كانوا أكثر اقتراباً من الشغيلة، والجماهير المستثمَرة. وكانت نظرياتهم الاجتماعية مشربة بالاهتمام بالجماهير الشعبية وبالتعاطف معها، هذه الجماهير التي تعاني من الاستثمار، والعمل الاكراهي. واقترب الاشتراكيون الطوباويون اقتراباً أعمق من فهم اسباب بؤس الجماهير وشقائها واضطهادها، واقتربوا، بالتالي، اقتراباً أعمق من فهم القوى المحركة للتاريخ.

كان منورو القرن الثامن عشر شأنهم شأن ايديولوجيي البرجوازية ينظرون الى الملكية البرجوازية الخاصة هنا كملكية خالدة. والى وضع الانسان الطبقي، كشيء متأصل في طبيعة الانسان ذاته. أما الاشتراكيون الطوباويون، فكانوا على العكس، يرون عن حق مصدر اضطهاد الجماهير الشعبية واستعبادها كامناً في تملك وسائل الانتاج تملكاً فردياً كانوا يرون في هذه الملكية المصدر الاساسي للتباين الاجتماعي، والاضطهاد، والجور. كانت نظراتهم خطوة متقدمة بالنسبة الى نظرات المنورين. بيد ان هؤلاء الاشتراكيين كانوا ينظرون الى نشوء الملكية الخاصة، لا كظاهرة اجتماعية قانونية تاريخية. لا كدرجة ضرورية في تطور المجتمع بل كانحطاط للانسانية، كإغراق عضوي عن الطريق الصحيح في أعقاب جهل المشرعين لطبيعة الانسان الحقيقية.

يقول اشتراكي القرن الثـــــامن عشر الطوبـــــاوي الفرنسي «موريللي» في كتابه «نظام الطبيعة» بأن كثيراً من الفلاسفة والمشرعين، والزعماء الحكوميين ينظرون الى مثالب المجتمع، كمثالب في مصير

الانسانية، دون ان يأخذوا بعين الاعتبار السبب الأساسي لمصائب الناس كلها. وهو سبب يكمن في الملكية الخاصة المتعارضة مع « طبيعة » الانسان. ولهذا، بالذات، يشير موريللي بسخرية الى أن مختلف « محولي الطبيعة الانسانية » أدركوا حتمية ضلالات المشرعين الاوائل، وغالوا، باستمرار فيها.

وتنشأ عن مثل نظرة المنورين المثالية النموذجية هذه، والمتعلقة بسيرة التاريخ، تنشأ نظرة الطوباويين الذاهبة الى ان الانسانية بحاجة الى بطل حقيقي، الى مشرّع، يستطيع قيادة الشعب وفق « طبيعة الانسان الحقيقية ».

كان معظم الاشتراكيين الطوباويين ينتظرون تحقيق الاشتراكية من « أقوياء العالم » من الملـــوك الحصفاء، والمشرعين الحكماء، والمحسنين الاغنياء. وهؤلاء ينبغي اقناعهم بعدالة مخططات تحويل المجتمع اشتراكياً، وهم سينتصبون لتحقيق هذه المخططات، من أجل إسعاد الانسانية المعذبة، وبهذا يحوزون المجد لأنفسهم، وكواضعي مختلف الانظمة الاجتماعية، كان هؤلاء الاشتراكيون الخياليون يريدون تحقيق السعادة للجميع على هذه الارض وبناء نظام اشتراكي، ولكن من غير نضال جماهير الشغيلة النشيط، من غير نضال الطبقة العاملة نضالاً ثورياً. كان معظم اشتراكيي القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، الطوباويون يرون في الشغيلة مجرد جماهير مضطهدة متألمة، عاجزة عن الابداع التاريخي المستقل. وكانوا يتوجهون بالافكار الاشتراكية لا للطبقة العاملة بل الى جميع الطبقات على السواء، في حين كان بعضهم، أمثال سان سيمون، وموريللي، يتوجه بالدرجة الاولى الى طبقة الاغنياء والمتعلمين. وكان سان سيمون يذهب الى ان المجتمع الجديد سيقوم على أساس الدين الجديد الذي أوجده، على أساس « المسيحية الجديدة »، كما ان على العلماء، والمهندسين والصناعيين، اي المثقفين البرجوازيين والرأسماليين، ان يقودوا هذا المجتمع.

صحيح أنه وُجِدَ بين الاشتراكيين الطوباويين لون آخر، ثوري، ديمقراطي، يمثلــه الاشتراكيون الطوبــاويون الألمــان، أمثــال زعــيم ثورة

الفلاحين التي اندلعت في المانيا، في القرن السادس عشر « توماس ميونتسير » وطوباوي القرن التاسع عشر « فيتلينغا » ويمثله أيضاً الديمقراطي الثوري الانكليزي ايديولوجي حركة الديغر في مرحلة الثورة البرجوازية الانكليزية (القرن التاسع عشر) أو نيستانلي، والاشتراكيون الطوباويون والديمقراطيون الثوريون الفرنسيون، أمثال فيللي، مابلي، بابوف، ديزامي، بلانكي. وكوكبة الديمقراطيين الثوريين الروس، النيرة، أمثال بيلينسكي، وغيرتسن، واغاريوف، وتشيرنيشفسكي، ودبروليونوف وبيساريف، وشيفتشينكو... وكذلك الديمقراطيون الثوريون في الصين، والهند، والولايات المتحدة، وبلغاريا، وهنغاريا ورومانيا، وبولونيا، وايطاليا وتركيا وغير ذلك من البلدان.

وقد عبر « بابوف » من بين الاشتراكيين الطوباويين في القرن الثامن عشر عن فكر الديموقراطية الثورية، والسلطة الشعبية، تعبيراً واضحاً وعميقاً. وحين وعى « بابوف » واتباعهأفكارأسلافه ،الديمقراطية ،الثورية والاشتراكية ،أغنوها بتجربة الثورة البرجوازية الفرنسية. واذا كان « موللي » قد اكتفى بدعوة عامة الى انتفاضة الشغيلة، وكان مابلي، وموريللي لم يضعا قط قضية الثورة، فان البابوفيين وضعوا قضية الانتفاضة الثورية الشعبية في مركز نظريتهم وبرنامج نشاطهم.

يقول « بابوف » مقتفياً آثار أسلافه: «ان الناس جميعاً لهم حق التمتع بالسعادة، وهذا هو هدف اتحادهم في المجتمع». بيد ان هذه السعادة غير متوفرة في اي مكان كان. وحق الناس الطبيعي لم يدرج في القوانين المدنية. وفي كل مكان يسيطر عدم المساواة الناجم عن الملكية الخاصة، وتلازم الملكية الخاصة، وعدم المساواة، دسائس احد أقسام المجتمع، الانانية، ضد القسم الآخر: دسائس الملاكين والاسياد ضد المعدمين، والعامة. وتؤدي جهالة الجماهير الشعبية الى نجاح دسائس المضطهدين. وليس من سبيل الى التغلب على هذه الدسائس غير قوة الثورة. وعلى الانتفاضة الشعبية أن تنظمها جمعيات سرية تضم أصدقاءها الحقيقيين وأنصارها، أن تنظمها « مؤامرة المتساويين » باسم المساواة.

البرجوازية من سلاحها، وتسكن المعدمين في بيوت الاغنياء ... الخ. وينتصب فيتلينغ ضد تفاهم المعدمين مع اعدائهم، الطبقات المالكة. وهو يشير الى ان على الجماهير المضطهدة «ألا تعتمد إلا على سيفها»، وان «تنتخب زعماءها»، دون أن تكترث «للأغنياء والأشراف». ويرى فيتلينغ ان أسباب فشل الانتفاضات الثورية تكمن في اشفاق الشعب على اعدائه، على الاغنياء، وفي احتفاظه لهم باملاكهم، كما حدث في انتفاضة ليون، أو في منحهم الحقوق الانتخابية، كما كان الامر في ثورة ١٨٤٨.

والى جانب هذه الافكار العميقة التي تعمم تجربة نضال الشغيلة، الثوري، نجد في نظرية فيتلينغ مكاناً أيضاً، «لأفكار» سان سيمون، الذاهبة الى ان قيادة المجتمع يجب ان يتمرس بها الفلاسفة والعلماء، والقيادة «ومسيح جديد» يأتي «حاملا في يده سيفاً ليحقق تعاليم المسيح الاول...» وسيبقى، بفضل شجاعته، على رأس الجيش الثوري، ويحطم بمساعدته بناء النظام الاجتماعي القديم النخر، ويقذف الى بحر النسيان بسيول الدموع المريرة، ويبني صرح الجنة على الأرض. في هذا تبدو عدم ثقة ايديولوجي الشيوعية الطوباوية، المعروفة في نشاط الجماهير الشغيلة، الذاتي، كما يبدو ادراك ضعف جماهير الحرفيين آنذاك وضعف قابليتهم للتنظيم، وعجز هذه الجماهير التي لم تقم على رأسها، بعد، البروليتاريا الصناعية، عن تحرير نفسها بايديها الخاصة.

ورغم هذه المثالب كلها، ورغم سذاجة ايديولوجية فيتلينغ وخياليتها، فان ماركس وانجلس وجدا في شيوعية فيتلينغ أول حركة نظرية ذاتية تقدمها البروليتاريا الالمانية، «وكبداية فكرية رائعة لا مثيل لها في تاريخ المانيا السابق، يقدمها الشغيلة الالمان»[١] الذين لم يبرزوا على صعيد النضال التاريخي ضد برجوازيتهم الا منذ وقت قريب جداً.

لقد تطورت الايديولوجية الاشتراكية الديموقراطية الثورية، أيضاً، في جميع البلدان الأخرى التي عرفت الحركات الثورية الموجهة ضد

(١) ماركس وانجلس: «المؤلفات» الطبعة الثانية، الجزء الاول ص ٤٤٤.

الإقطاعية ، واستثمار الشغيلة الرأسمالي . ونتيجة للظروف الموضوعية الخاصة ، فقد تطورت الايديولوجيا الثورية الديمقراطية ، بشكل أكمل ، في روسيا القرن التاسع عشر.

ولكن قبل ان نبدأ في بحث نظرات الديموقراطيين الثوريين الروس ، لا بد من التوقف لماماً عند نظرات المؤرخين البرجوازيين الفرنسيين في مرحلة عودة المَلَكية Restauration أمثال ميني ، وتيري ، وغيزو ، فتحت تأثير احداث الثورة البرجوازية الفرنسية المباشرة ، والصراع الطبقي التالي ، حاول هؤلاء المؤرخون تفسير تاريخ المجتمع ، ولا سيا تفسير الانعطافات العظيمة فيه ، بالنضال الطبقي ، بنضال الجماهير الشعبية .

وأشار « ميني » في كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » الى ان التاريخ ليس كتاب حياة الافراد العظام ، بل هو تاريخ الشعوب . وهي فكرة طوّرها أيضاً « تيري » . يقول « تيري » : « ان حركة الجماهير في طريق الحرية والازدهار قد تهمنا اكثر من مواكب الفاتحين ، ويهزنا شقاؤها اكثر مما تهزنا مصائب الملوك المحرومين من أملاكهم » .

لقد دعا « ميني » و« تيري » و« غيزو » الى دراسة حياة الشعوب ومعيشتها ، واشاروا الى أهمية علاقات التملك ، ولكنهم ، بحكم كونهم ايديولوجيي البرجوازية ، لم يستطيعوا التغلب على الفهم المثالي للتاريخ . وقد نظروا الى السبب الرئيسي في تطور المجتمع ، لا في تطور الانتاج المادي ، بل في تقدم المعارف ، وغالباً ما كانوا يفسرون تقسيم المجتمع الى طبقات بعنف احد الاجناس او احدى الامم تجاه جنس آخر أو أمة أخرى ، وباستيلاء احدهم على الآخر والحاقه به .

وحين انتصب هؤلاء المؤرخون ضد سيطرة النبلاء المطلقة عرضوا الملكية الخاصة البرجوازية كشيء طبيعي خالد ، كأساس خالد وطبيعي للمجتمع . وقد مجدوا نضال الطبقة الثالثة ، وعلى وجه التحديد ، نضال البرجوازية ضد النبلاء ، ولكنهم عارضوا بكل حزم نضال البروليتاريا الطبقي الثوري ، ضد البرجوازية ، معلنين انه نضال ضار ، وانتفاضة غير شرعية ضد « النظام » . كانوا مع حركة الجماهير الشعبية الثائرة من حيث

الأساس، تحت لواء البرجوازية، ومع هذا لم يفهموا من كلمة الشعب الا تلك الطبقات المالكة، طبقات المرتبة الثالثة، التي ترأسها البرجوازية، نتيجة لمحدوديتهم الطبقية عاد «ميني» و«تيري» و«غيزو» مجدداً بعد وصول البرجوازية الى السلطة الى النظرة القديمة الذاهبة الى ان التاريخ لا يصنعه الشغيلة، لا تصنعه الجماهير المستثمرة، بل تصنعه الطبقات المالكة وحدها. ولم يكونوا يرون في حركات الجماهير الشغيلة غير صراع أهواء اعمى.

وقد لعب مؤرخو العقد الثاني والثالث من القرن التاسع عشر، الانكليز، دوراً هاماً في توضيح دور الجماهير الشعبية في التاريخ. وقد احتل الايديولوجيون الشارتيون منزلة خاصة في معالجة هذه القضية.

أما الديموقراطيون الثوريون الروس فكانوا أقرب ممثلي الاشتراكية الطوباوية السابقة للماركسية، الى النظرة الصحيحة عن دور الجماهير الشعبية.

هؤلاء الديموقراطيون الثوريون الروس الذين كانوا ماديين في حل قضية الفلسفة الأساسية في فهم الطبيعة، والذين اعتبروا دياليكتيك هيغل كـ «جبر الثورة»، (غيرتسن)، اندفعوا، بحزم، في اتجاه المادية الدياليكتيكية، كما قال لينين، واقتربوا جداً منها، وتوقفوا أمام المادية التاريخية.

كان الديمقراطيون الثوريون الروس: غيرتسن، بيلينسكي، أغاريوف، تشيرنيشفسكي، دبروليوبوف، وهم المعبرون عن مصالح الفلاحين الأقنان في روسيا، قد وعوا وعياً انتقادياً لكل ما كان تمنياً، قبلهم، في الفكر الاجتماعي الروسي الاوروبي الغربي. لقد هضموا، وطوروا تطويراً خلاقاً، الأفكار الثورية التي أتى بها المادي الروسي «راديشيف» ونظرية فورباخ المادية، ودياليكتيك هيغل، ونظريات الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين والالمان والانكليز، والنظرات الطليعية التقدمية التي جاء بها المؤرخان الفرنسيان: ميني، وتييري، حول دول الجماهير الشعبية في التاريخ.

لقد دعا النبيل الروسي، الثوري، والمادي، البارز «راديشيف» في كتابه «رحلة من بطرسبورغ الى موسكو» (١٧٩٠)، حين تحدث ضد الحكم المطلق وضد نظام القنانة، دعا الفلاحين الى قلب مضطهديهم الاقطاعيين، الذين يحطون من كرامة الفلاحين الانسانية، وينهبونهم، وقد كتب راديشيف، متوجهاً الى الفلاحين يقول:

« حطموا أدوات زراعتهم، أشعلوا النار في بيادرهم، ومناشف حبوبهم، وإهراءاتهم، وذروا الرماد في الحقول، لأنَّ منها كان عذابه (الفلاح)، وصموهم بالظلم حتى يشمئز من يراهم، بل حتى يتجنبهم كي لا يؤخذ بمثلهم »[٢].

ولم يخامر راديشيف اي شك في ضرورة وجدوى مثل هذه الانتفاضة عندما صاح قائلا:

« آه! لو ان العبيد المكبلين بقيودهم الثقيلة قاموا في سورة غضب يائس بتحطيم رؤوسنا بالحديد الذي يكبل حريتهم، رؤوس أسيادهم الذين لا شفقة فيهم، وصبغوا حقولهم بدمائنا! فماذا تخسر الدولة؟ سينهض بعد حين من بينهم رجال عظام للدفاع عن المسحوقين، رجال لا يظنون عن نفوسهم ظنوننا نحن، ولا يؤمنون بحقهم في اضطهاد الآخرين وليس هذا حلماً، فنظري يخترق حجب الزمن الكثيفة التي تخفي المستقبل عن عيوننا، وإني لأرى ما سيجري خلال مائة عام »[٣].

كان هذا عبارة عن تغلغل واقعي لفكر راديشيف، الثوري، في المستقبل. فلم يمض اكثر من قرن تقريباً حتى كان حلمه يتحقق كلياً، وحتى اكثر مما حلم به، فلم يتحرر الشعب الروسي من عبودية القنانة، فحسب، كما كان يرغب راديشيف، بل وبنى مجتمعاً اشتراكياً أيضاً.

ان نظرات الديمقراطيين الثورية. الروس متقاربة تقارباً وثيقاً من أفكار «راديشيف» الثورية، وحين انتقد الديمقراطيون الثوريون:

(٢ و٣) أ. ن. راديشيف مختارات فلسفية وسياسية، موسكو ١٩٥٢ ص ١٤٨ و ١٩١.

وكان البابوفيون يرون في تاريخ المجتمع تاريخ الصراع المتواصل بين الاغنياء والفقراء، بين الأسياد والعامة. ويتواصل هذا الصراع منذ أن يظهر ميل عند أحد الطرفين للعيش على حساب الآخرين. فاذا حرمت جماهير الناس من امكانية العيش، ولم تعد تملك شيئاً، عندئذ لا بد من حدوث انقلاب في نظام الملكية. ولا بد للجماهير المجرَّدة من كل شيء من أن تتجه الى قلب النظام الاجتماعي الذي يضطهدها، والى بناء النظام الشيوعي. وتندلع ثورة المضطهَدين ضد المضطهِدين، عادة، عندما تصل غالبية الناس الى الوضع الذي لم يعد بالإمكان احتماله. إن الثورة الفرنسية التي سارت الى الأمام حتى التاسع من تيرميدور، ثم انكفأت على أعقابها، لم تحقق انتصار المعدمين النهائي، ولم تصل الى نهايتها، لهذا لم يفعل شيء من أجل تأمين السعادة الشعبية «لا بد من السير بالثورة حتى نعقد لواء النصر للشعب» وحتى نحقق تحرير الشعب تحريراً كاملاً.

لقد صاغ بابوف واتباعه برنامجاً كاملاً للتدابير الثورية بغية تحرير الشعوب. وتقدموا بفكرة، ديكتاتورية البروليتاريا، الثورية، وتسليح الشعب الثائر، وتجريد الطبقات المالكة، اعداء الثورة الشعبية، من السلاح.

لم يكن لدى البابوفيين، ولم يكن بالامكان ان يكون لديهم ادراك علمي لدور البروليتاريا التاريخي، باعتبارها طبقة اجتماعية من نوع خاص. ولم يفرزوا البروليتاريا من بقية الجماهير المعدمة، ولم يروا مهمتها التاريخية. وكانت الجمعيات السرية البابوفية، التي تعد الانتفاضة الثورية بعيدة عن مهمات حزب البروليتاريا السياسي. يقول رفيق بابوف في النضال، وحامل لواء أفكاره «بيوناردت»: من المتعذر في ابتداء الثورة انتقاء الناس القادرين على قيادتها والسير بها الى نهايتها. ولهذا لا تتطلب مصلحة سيادة الشعب الاهتمام بجمع الاصوات اكثر من الاهتمام بنقل السلطة العليا الى أيدي الثوريين الأصليين الحقيقيين. وابدع البابوفيون فكرة ديكتاتورية اكثر فئات الشعب وعياً، وهي الفئة التي تكون أقلية غير كبيرة. ومن هنا نشأت سمات العمل التآمري في حركة البابوفيين، وهي

السمات الناجمة عن عدم وضوح الوعي الطبقي لدى العمال الفرنسيين، وعن عدم تطور طبقة البروليتاريين ذاتها في نهاية القرن الثامن عشر وبدء القرن التاسع عشر.

وقد طور ثوري اواسط القرن التاسع عشر الفرنسي الشهير بلانكي، وهو المعاصر لماركس، طوَّر افكار بابوف. فقد دعا أيضاً، الى ضرورة العصف الثوري بالطبقات المستثمِرة والى تحقيق ديكتاتورية الشعب، الثورية. وطرح حتى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا. ولكنه لم يستطع البرهنة، علمياً، على هذا الشعار، لأنه بقي مثالياً في فهم القوى المحركة للتاريخ. كما عجز بلانكي عن فهم قوانين التاريخ الموضوعية... وانطلق في تكتيكه من نظرات مثالية لا من نظرية الصراع الطبقي العلمية. وهو حين اراد تحقيق الثورةَ، لم يرد القيام بذلك من خلال الجماهير الشعبية، بل من خلال المؤامرات وانتفاضات المنظمات الثورية السرية. وهو أمر جعل نشاطه الثوري ينتهي الى الفشل.

أما في المانيا فكان فتيلينخ، نظري الشيوعية الخيالية الذي اعترف بضرورة نضال الجماهير الشعبية، الثوري، فقد نشأ في وسط حِرَفي مدقع نصف بروليتاري. لقد وعى فيتلينخ، أفكار الاشتراكي الخيالي الفرنسي فوربي، وأدرك أيضاً أن ما قدمه فوربي من مشاريع الغالانستير والا كان عاجزاً عن تحسين اوضاع الطبقة الفقيرة الواسعة العدد. وهو امر لا تحققه الا الثورة، الا قلب النظام القديم برمته رأساً على عقب. ان مشاريع فوربي يجب ان توزع مداخيل الشركات حسب العمل، والرأسمال، والملكية الشخصية، اي ان هذه الشركات ستحتفظ، بالتالي، بالمداخيل التي لا تتأتى عن العمل، وبالتباين الطبقي. وحيث يوجد التباين الطبقي لا بد من وجود تباين في المصالح الطبقية وقيام التناقضات الطبقية.

ويذهب فيتلينخ الى ان الثورة السياسية ينبغي استكمالها بالثورة الاجتماعية. وعلى جيش الشغيلة الثوري، جيش المعدمين، ان يلعب الدور الاول في الثورة. وبعدما تحقق الثورة انتصارها الاول، تعلن عن اقامة المجتمع الجديد، وتنتخب حكومة مؤقتة، وتسلِّح الشغيلة والحرفيين وتجرِّد

غيرتسن، وتشيرنيشفسكي وغيرهما، نظرات اولئك الاشتراكيين الطوباويين الذين اكدوا امكان تحقيق الاشتراكية بالطرق السلمية، أشار هؤلاء الديمقراطيون الثوريون اشارة مباشرة الى ضرورة نضال الشعب، ثورياً، من أجل العصف بالنظام القديم. وقد توصلوا الى الاعتراف بضرورة التنظيم الثوري، وتنوير الجماهير عن طريق الدعاية الثورية. وذهبوا الى ان الثورة ينبغي ان تتحقق من خلال انتفاضة الجماهير ذاتها ولا بد من اجل اعداد هذه الانتفاضة من تنظيم ثوري.

لقد خطا غيرتسن وتشيرنيشفسكي خطوة الى الأمام، نحو الماركسية، عندما توصلا الى وعي ضرورة التحولات الاقتصادية الجذرية، من أجل انتصار النظام الاجتماعي الجديد. وذهب غيرتسن، وقد قطع ما بينه وبين الباكونينية، في عام ١٨٦٩، الى التحول السياسي وحده، من غير اجراء انعطاف اقتصادي، لا يمكّن من الذهاب الى أبعد ما ذهبت اليه شيوعية «بابوف» القائمة على التسوية.

ان غيرتسن، وبيلينسكي، وتشيرنيشفسكي، ودبروليوبوف، الذين قدروا دور الأفراد البارزين، في التاريخ، تقديراً عالياً، وفهموه أعمق فهم، وشددوا على فكرة ان الانسان لا يستطيع بمفرده، وبمجرد إرادته، تغيير مسيرة التاريخ. ان قوة الافراد البارزين، انما تكمن في تعبيرهم عن حاجات المجتمع، عن حاجات الشعب، وينتصبون، بلا تردد، ضد القديم الذي عفا الزمان عليه، ولهذا، بالذات، يلقون مساندة قوى الشعب التقدمية. ورغم أن الشعب مسحوق، ومضطهد ومحروم من حقوقه، حيل بينه وبين المعرفة والثقافة، ويخدعه ممثلو الطبقات السائدة، فإن الشعب، بالذات، وفي نهاية المطاف، هو البطل الأول في التحولات والأحداث التاريخية. إن دور الجماهير الشعبية، الحاسم، كان فكرة ثابتةً في نظرات الديمقراطيين الثوريين الروس عن العالم، وموجهاً لنشاطهم العملي.

يقول غيرتسن معمماً تجربة اول مرحلة للثورة البرجوازية الفرنسية عام ١٨٤٨: «لا شك أن ثورة ٢٤ شباط لم تكن، اطلاقاً، تنفيذاً لخطط

معد من قبل. إنها كانت إلهاماً عبقرياً صادراً عن شعب باريس »[٤]. وحين أوضح غيرتسن أسباب اخفاق الثورة أشار الى ان خطيئة الحكومة الفرنسية المؤقتة، الاساسية القاتلة، خطيئة لويس بلان، وليدررولينا، وغيرهما، انهم لم يرغبوا بالاعتماد على دعم الجماهير الشعبية، لم يريدوا تحقيق ديكتاتورية الشعب الثورية لسحق الثورة المضادة، وانهم اعطوا قوى الثورة المضادة امكانية تنظيم نفسها، والانتقال الى الهجوم ضد الثورة.

وتنبغي الاشارة هنا الى ان ماركس أيضاً انتقد لويس بلان وليدر رولينا، وغيرهما من الديمقراطيين صغار البرجوازيين لمثل تلك الاخطاء. ولكن ماركس لم يكتف بذلك، بل كشف عن الجذور الطبقية الاجتماعية لهذه الاخطاء، واشار الى أن انطلاقة ثورة ١٨٤٨ ومسيرتها، تحددا، في نهاية المطاف، بالنضال الطبقي ونسبة القوى الطبقية.

وقد فهم غيرتسن ان على الثوريين، ان يدرسوا مستوى تطور الشعوب، وحاجات التطور الاجتماعي، ان عليهم ان « يسايروا الحياة » دون ان يتخلفوا عنها، ولكن دون ان يذهبوا بعيداً الى الأمام الى حد ان تصبح الجماهير عاجزة عن اللحاق بهم، إلا ان غيرتسن، شأنه شأن الديمقراطيين الثوريين الآخرين لم يكن لديه، بعد، مجموعة نظرية موثوقة، تبين له طرق حركة الجماهير، الثورية، لم يكن لديه بعد فهم مادي علمي لتاريخ المجتمع.

لقد وضع « غيرتسن » وغيره من ديمقراطيي القرن التاسع عشر الثوريين في روسيا، القضية التالية بكل إلحاح، قضية قيادة الثوريين لجماهير الشغيلة، قيادة صحيحة، قضية وضع نظرية ثورية صحيحة. كانوا أبعد ما يكون عن تقبل فكرة الخضوع أمام العفوية، وانتقدوا أفكار باكونين الفوضوية عن الانتفاضة الفلاحية العفوية، باعتبارها الشرط الاول للقضاء على النظام القديم. وقد أطلق « غيرتسن » على أولئك الذين ينكرون ضرورة القيادة الواعية للحركة الثورية، تسمية « جاحدي العلم،

(٤) غيرتسن: المجموعة الكاملة لمؤلفاته وتجاربه، الجزء السادس ١٩١٧ ص ٦٣.

والمتنكرين للحضارة ». وكان يشير الى ان جماهير الشغيلة، ذاتها، هذه الجماهير التي يقع على عاتقها «عبء الحياة اليومية» كله، تبحث عن «الكلمات والمفاهيم» أي عن النظرية الثورية، وهي تتجنب، غاضبة، أولئك الذين يحاولون إثبات ان العلم لا يخص الجماهير، بل يخص النخبة المختارة فقط»(٥).

وغني عن البيان ان غيرتسن لم يتوصل الى هذه النتائج دفعة واحدة، بل في أعقاب دراسة معمقة لتجربة الحركات الثورية، وفي أعقاب تحريات طويلة، مضنية وخيبات أمل، وأخطاء، وانتقادات مؤلمة، وانتقاد ذاتي.

وعلى غرار غيرتسن والديمقراطيين الثوريين الآخرين كان لينين يعلم البروليتاريا وحزبها أن تعي الاهمية العظمى التي تتمتع بها النظرية الثورية، لأن «الإخلاص المطلق للثورة، والتوجه الى الشعب بالدعاية الثورية، لن يضيعا حتى ولو فصلت عشرات السنين بين عملية البذار والحصاد»(٦).

ورغم ان الديمقراطيين الثوريين الروس قد بقوا في اطار الاشتراكية الطوباوية، فانهم، مع ذلك، برزوا كايديولوجيين للثورة الفلاحية، وعلقوا آمالهم كلها على الثورة الشعبية لا على اصلاحات النظام القديم التافهة.

ومع ربط الديمقراطيين الثوريين الروس تحقيق أهدافهم بالنضال الثوري الذي تقوم به الجماهير الشعبية، انتصبوا ضد نظريات عبادة الفرد، المثالية، السائدة آنذاك في العلم التاريخي.

يقول «دبروليوبوف» ان التاريخ ليس سيرة الرجال العظام. وهو لا يهتم ببعض الناس، وحتى العظام منهم، الا لانهم يتمتعون بأهمية خاصة بالنسبة الى الشعب، بالنسبة الى الانسانية... ان التاريخ ليس تاريخ الدولة، ولا بد من ان يكون موضوعه الاساسي حياة الشعب، ولهذا، فحين نوضح دور الفرد البارز، ينبغي أن نشير إلى «كيف انعكست فيه عناصر

(٥) غيرتسن: منتخبات من المؤلفات الفلسفية، جزء ٢، ١٩٤٨، ص ٣١٣.
(٦) لينين: المؤلفات، الجزء ١٨ ص ١٥.

التطور الحي ، التي استطاع اكتشافها في شعبه ». إن تاريخ الشعوب يجري بشكل قانوني ، وهو لا يخضع لهوى الأشخاص. وحتى تلك التحولات التي تبدو ، في البدء ، ناجحة ، فهي لن تكون وطيدة إذا ما تعارضت مع المسيرة الطبيعية للتاريخ ، مع طبيعة مصالح الشعب[٧].

أما « بيساريف » فقد طور الافكار النظرية العميقة حول دور الجماهير الشعبية في التاريخ. وهو يعتقد، مقتفياً خطى « دبروليوبوف » ان الدراسة السابقة للتاريخ ليست علمية لأن المؤرخين لم يدرسوا حياة الشعوب، بل اكتفوا بدراسة تاريخ الدول، والملوك، والغزاة... الخ. ان قضية اوضاع الجماهير الشعبية هي القضية الاساسية في التاريخ. وتستمد دراسة التاريخ اهميتها من انها تتيح امكانية فهم « كيف تشعر الجماهير وتفكر؟ وكيف تتبدل؟ ، وما هي الظروف التي تتطور فيها قواها الاقتصادية والفكرية ، وما هي الأشكال التي تتبدى فيها أهواءها ، وما هي الحدود التي ينتهي عندها صبرها؟ وعلى التاريخ أن يروي قصة حياة الجماهير بصدق وعقلانية. وعلى الأفراد والأحداث الشخصية أن تجد في التاريخ لها مكاناً يتناسب وتأثيرها على حياة الجماهير ، أو مع تفسير هذه الحياة. مثل هذا التاريخ ، وحده ، هو الذي يجتذب انتباه الانسان المفكر »[٨].

من المهم هنا ان نلحظ اهتمام الديمقراطيين الثوريين الروس، العميق، بشروط معيشة جماهير الشغيلة و« بتطوير قواها الفكرية والاقتصادية »، وان نلحظ المعالجة التاريخية لقضية دور الجماهير الشعبية في تطوير المجتمع. وقد نظر هؤلاء الديمقراطيون الثوريون الى جميع تاريخ المجتمع، المعروف، على انه تاريخ النضال بين الشغيلة ومضطهديهم، ومستثمريه « الطفيليين » كما يقول دبروليوبوف.

وقد أعقب « بيساريف » دبروليوبوف في تطوير الفكرة الذاهبة الى

(٧) دبروليوبوف: المؤلفات الكاملة، في ستة اجزاء، الجزء الثالث ص ١٢٠، ١٢٩ - ١٣٠.

(٨) بيساريف: المؤلفات الكاملة في ستة مجلدات، الجزء الثالث مجموعة ١٨٩٧ ص ١١٤.

ان نشاط ما يسمى بالشخصيات التاريخية التي لا يربطها بالشعب اي رابط، يبقى سطحياً، محدوداً، وغالباً ما يعجز عن تحقيق الاهداف المرسومة، أو أنه يؤدي الى نتائج تعاكس كلياً هذه الاهداف. ويفسر ذلك بان الزعماء المعنيين يتجنبون معرفة الحياة الشعبية، ولا يوقظون وعي الشعب، ويفعلون ما يناقض مصالحه وحاجاته. ان عقل الانسان وارادته ليسا اكثر من نقطة في البحر، يضيعان «في تبديات الفكر الشعبي، العظيم، الارادة الشعبية الجبارة»[٩].

يقول بيساريف: «ان الجماهير المحرومة من التعلم اما ان تخضع، او تساهم في الحركات مساهمة عضوية، عن غير وعي. ولهذا فان القوى الحية في الشعوب لم تلعب، حتى الآن، في الاحداث التاريخية غير دور ثانوي جداً. لقد تبدلت الاشكال السياسية، وقامت دول وانهارت دول، ولكن هذا كله جرى بمعظمه دون ان يمس الشعب، دون ان يحطم او يبدل العلاقات بين الناس، لا العلاقات الطبقية ولا العلاقات الاقتصادية». هكذا جرت الامور تقريباً حتى نهاية القرن الثامن عشر. بيد انه مع تطور وعي الجماهير اخذ دورها يتعاظم في الاحداث التاريخية. هذا الاستنتاج الذي توصل اليه «بيساريف» يوحي بأن الديمقراطيين الثوريين الروس اقتربوا، تاريخياً، من تقويم دور الجماهير الشعبية.

وحين قوم «بيلينسكي» دور الجماهير الشعبية في احداث ثورة ١٨٣٠ الفرنسية، ولاحظ ثقتها بالبرجوازية، كتب يقول: «الشعب هو طفل، ولكنه طفل ينمو، ويعد بان يجعل من نفسه رجلاً يتدفق قوة وحصافة... انه ما يزال ضعيفاً ولكنه يختزن في نفسه اوار الحياة الوطنية، وحماس العقيدة النضر التي خبت في فئات «المجتمع المتعلم». وقد قصد «بيلينسكي» بالمجتمع «المتعلم» البرجوازية «الظافرة»، التي توصلت الى السلطة في فرنسا، والتي تحولت من طبقة ثورية الى طبقة مناهضة للثورة.

(٩) المرجع ذاته، اصدار ١٩١٣ ص ١٣١.

ويعتبر « تشيرنيشفسكي » أقرب، الديمقراطيين الثوريين الروس كلهم الى الفهم العلمي لدور الجماهير الشعبية في التاريخ ولدور الطبقات التقدمية، والثورية، في تطور المجتمع السياسي. وليس عبثاً قول لينين ان رائحة النضال الطبقي تفوح من مؤلفات « تشيرنيشفسكي ».

لقد ذهب « تشيرنيشفسكي » الى ان جماهير الشغيلة، بالذات، هي القوى المحركة في التقدم التاريخي، رغم انها مسحوقة من قبل الطبقات الحاكمة: أمثال طبقة الاقطاعيين والطبقة البرجوازية. ومهما كانت عليه هذه الجماهير الشغيلة المضطهدة، من اهمال، وتخلف وضعف الوعي السياسي، فانها، في ظروف تاريخية معينة، سرعان ما تستيقظ، وتتنور، وتبدي « قوى نشيطة »، وتتخذ « القرارات الجريئة ». هذه النتائج توصل اليها « تشيرنيشفسكي » على أساس الدراسة المعمقة لتاريخ الحركات الثورية سواء في روسيا او في الغرب.

وقد وجه « تشيرنيشفسكي » انطلاقاً من موقف الديمقراطي الثوري، نقداً لاذعاً لنظرات القوميين المتعصبين والعرقيين الذين يقسمون الشعوب الى عروق وأمم « سامية » وعروق وأمم « منحطة » « فنحن نعلم، عن كل من الشعوب المتحضرة الحالية، ان طراز حياتها، في البدء، لم يكن كما هو عليه الآن. ويؤثر طراز الحياة على نوّعية الناس، الاخلاقية، ومع تبدل هذا الطراز تتبدل تلك النوعيات. ولهذا بالذات، فان أية سمة مميزة للشعب المتمدن، تحاول الصاق أية نوعية اخلاقية ثابتة به، ينبغي اعتبارها كاذبة »[١٠].

ان « تشيرنيشفسكي » لم يعط توضيحاً مادياً لتبدل طراز الحياة، الا ان المعالجة التاريخية للجماهير الشعبية سلحته، كما سلحت الديمقراطيين الثوريين الروس الآخرين، بسلاح ماض ضد أي لون من ألوان النظريات الرجعية المعادية للشعوب.

اننا نجد عند « تشيرنيشفسكي » فكرة هامة عن الاهمية الاساسية

(١٠) تشيرنيشفسكي: المؤلفات الفلسفية المنتخبة، الجزء الثالث ١٩٥١ ص ٦١٤.

لتـأثـير طراز الحيـاة عـلى تطور الشعوب الفكري والاخـلاقي. يقول تشيرنيشفسكي: «الجماهير تعمل، وتتحسن الفنون الانتاجية قليلا. ان الجماهير يستهويها حب المعرفة، أو حب الاستطلاع، في آخر المطاف. ويتطور التعلـيم، شيئـاً فشيئـاً، وبفضـل تطور الزراعـة، والصنـاعـة، والمعـارف النظرية، تتلطف الطباع، تسمو العادات، ثم المؤسسات. وسبب هذا كله واحد: توق الجماهير الى تحسين طراز حياتها المادي والخلقي»(١١).

أما بما يُشترط ويتحدد «توق» الجماهير هذا الى تحسين طراز حياتها في كل عصر؟ وما هي الاسباب التي تدعو الى تبديل هذا «التوق»، فسؤالان عجز «تشيرنيشفسكي» وغيره من الديمقراطيين الثوريين عن اعطـاء جواب عنهمـا، او انهم عزوا الاسبـاب الى «طبيعـة» جماهـير الشغيلة.

ونتيجة للظروف التاريخية التي كانت تعيشها روسيا: من تخلف اقتصـادي، وانعـدام الحركـة العمـاليـة في ذلـك الوقـت، لم يستطـع الديمقراطيون الثوريون الروس الخروج عن نطاق الاشتراكية الطوباوية والفهم المثالي للتاريخ، ولم يستطيعوا اكتشاف قوانين تطور المجتمع، وفهم دور الانتاج المادي واساليب الانتاج كقوة محددة لتطور المجتمع. كما لم يستطيعوا انهاء الانتقال من الديمقراطية الثورية الى الشيوعية العلمية اي الانطلاق من مواقع البروليتاريا باعتبارها اكثر الطبقات تقدمية، والمدعوة تاريخياً لتكون صانعة المجتمع الشيوعي، الجديد.

ان نظرات الديمقراطيين الثوريين عن الشعب ودوره في التاريخ بقيت أفكار المنورين مجردة، باعتبار أن هؤلاء الديمقراطيين لم يكتشفوا بين جماهير الشغيلة عامة الطبقة العاملة، كما لم يستطيعوا، نتيجة تخلف الوطن اقتصادياً وسياسياً، الوصول الى فهم دور الطبقة العاملة كقائدة ومنظمـة لنضـال الشغيلـة، الثوري. وكـان تشيرنيشفسكي وغـيره من الديمقراطيين الثوريين، ما زالوا يرون السبب الأساسي لتطور المجتمع في

(١١) تشيرنيشفسكي: المؤلفات الكاملة في ١٥ مجلداً، الجزء السابع ١٩٥٠ ص ٤٧٧.

تقدم المعرفة، وانتشار التعليم، لا في تغيير اسلوب انتاج الثروات المادية. وفي هذا يتبدى، عدم نضج، ومحدودية مادية الديمقراطيين الثوريين الروس، الفلسفية والمادية السابقة للماركسية كلها.

ان جميع الماديين السابقين للماركسية خانوا، كما يقول انجلس، المادية في فهم تاريخ المجتمع بالضبط. فهم بدلاً من أن يبحثوا عن الظروف المادية التي تقوم على أساسها الأفكار، لجأوا الى اعتبار القوى المحركة المثالية الأسباب النهائية للأحداث الاجتماعية. وهو أمر أعاق امكانية فهمهم قوانين تطور الشروط المادية المحددة لتطور المجتمع، تطور نشاط الجماهير الشعبية كصانعة للتاريخ.

٢ ـ اكتشاف قوانين تطور المجتمع وانتقاد النظرة المثالية عن دور الجماهير الشعبية في التاريخ.

لقد اكتشف ماركس وانجلس قوانين تطور المجتمع. يقول ماركس في كتابه «إسهام في نقد الاقتصاد السياسي»: «في الانتاج الاجتماعي لحياة الناس، يدخل هؤلاء في علاقات محددة ضرورية، مستقلة، عن إرادتهم، في علاقات انتاجية تتلاءم ودرجة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية. ومجموع هذه العلاقات الانتاجية يشكل بنية المجتمع، الاقتصادية، الاساس الحقيقي الذي يقوم عليه البنيان الفوقي الحقوقي والسياسي، الذي تتلاءم معه أشكال محددة من الوعي الاجتماعي. ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط عمليات الحياة عامة، الاجتماعية والسياسية والروحية. ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل، على العكس، ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم»[١٢].

تعلمنا الماركسية ان مفتاح فهم شروط حياة الجماهير الشعبية، المعاشة ونشاطها ينبغي البحث عنها في تبدل اساليب انتاج الخيرات المادية

(١٢) ماركس وانجلس: المنتخبات. الجزء الاول، ١٩٣٥، ص ٣٢٢.

لا في وعي الناس، ولا في تقدم المعارف. فتقدم المعارف ذاته مشروط ومحدد بتطور الانتاج الاجتماعي المادي. ان تطور كل مجتمع انما يبدأ بتطور القوى المنتجة، وقبل كل شيء، بتبدل ادوات العمل. فمع تحسين هذه الادوات، يتطور الناس انفسهم، ويتطور سلوكهم نحو العمل، وتتعاظم تجربتهم الانتاجية. وواضح ان ادوات الانتاج يصنعها ويطورها الناس انفسهم، الشغيلة ذاتهم. وجماهير الشغيلة هي القوة الإنتاجية الاساسية في المجتمع، هي الصانعة لجميع الخيرات المادية. وهي المحرك الاول للعملية الانتاجية؛ وبالتالي لتاريخ المجتمع.

ان تطور القوى المنتجة مشروط بما يلائمه من علاقات انتاجية. وتساعد العلاقات الانتاجية الجديدة على تطوير القوى المنتجة. وتصبح العلاقات الانتاجية القديمة عقبة امام تطور المجتمع مما يؤدي الى الثورة الاجتماعية. وتعمد قوى المجتمع، الطليعية، الشغيلة في الطليعة، الى تحطيم العلاقات الانتاجية القديمة، وبتعبيد الطريق أمام تطور العلاقات الانتاجية الجديدة، وبذلك تفتح آفاقاً أمام التطور اللاحق للقوى المنتجة.

ان نشوء اسلوب الانتاج الجديد يخلق الظروف الاقتصادية الجديدة لحياة الناس ونشاطهم. ومع تبدل أساس المجتمع الاقتصادي، يحدث انعطاف سريع الى هذا الحد او ذاك، في البنيان الفوقي الاجتماعي كله؛ فنتيجة للتبدل في طراز حياة الناس، الاجتماعية يتبدل، أيضاً وعيهم الاجتماعي.

هذا هو دياليكتيك التطور الاجتماعي الذي اكتشفه ماركس، في مجمل خطوطه العامة. وبفضل اكتشاف المادية التاريخية أخلت الفوضى والاعتباطية السائدتان، قبل ماركس، في النظرات الى التاريخ والسياسة، «أخلتا المكان لنظرية علمية، محكمة، متكاملة، تبين كيف يتطور من نمط الحياة الاجتماعية الواحد، نمط أكثر سمواً نتيجة نمو القوى المنتجة»[١٣].

(١٣) لينين: المؤلفات، الجزء ١٩ ص ٥.

يقول لينين، في معرض تقديره لاهمية الانعطاف الذي أحدثه ماركس وانجلس في فهم تاريخ المجتمع:

«ان اكتشاف المفهوم المادي للتاريخ، او بشكل أدق، الاستمرار والتطبيق المتماسك للمادية في مجال الظواهر الاجتماعية، قضى على مثلبتين أساسيتين في النظريات التاريخية السابقة. اولاهما ان هذه النظريات كانت لا تنظر، في أحسن الاحوال، إلا الى الدوافع الفكرية في نشاط الناس التاريخي، دون ان تتحرى أسباب هذه الدوافع، وان تتلمس القانونية الموضوعية لتطور منظومة العلاقات الاجتماعية، ودون أن ترى جذور هذه العلاقات في مستوى تطور الانتاج المادي. وثانيتهما ان تلك النظريات لم تأخذ بعين الاعتبار اثر جماهير السكان، في حين ان المادية التاريخية كانت اول من أتاح بحث الشروط الاجتماعية لمعيشة الجماهير وتبدل هذه الظروف، بدقة تاريخية طبيعية»[14].

كان علم اجتماع ما قبل الماركسية، ينظر كله تقريباً، الى المجتمع كشيء ثابت لا يتبدل، وجد مرة واحدة والى الأبد، او كمجرد عدد من الناس، كمجموعة ميكانيكية، من الافراد، تتبدل، عرضياً، بفعل هوى بعض الافراد: من ملوك، ومشرعين، وغزاة، وعلماء... الخ. وقد وضعت الماركسية حداً لمثل هذه النظرات اللاعلمية، مشيرة الى ان المجتمع، شأنه شأن الطبيعية، هو في تبدل مستمر، وان تطور المجتمع ينبغي ان ينظر اليه كعملية تاريخية طبيعية، اي قانونية..

ان الماركسية تدرس المجتمع بجميع تعقيداته وتناقضاته، ناظرة اليه كعملية تطور، وتعاقب للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، وان الانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى أخرى إنما يحدث عن طريق الثورة، عن طريق صراع الطبقات.

ونتيجة للانعطاف الذي اوجده ماركس وانجلس في فهم التاريخ، أصبح أساس تطور المجتمع يعرض كتاريخ العمل وجماهير الشغيلة، وتاريخ

(١٤) لينين: المؤلفات، الجزء ٢١، ص ٤٠.

التشكيلات الاجتماعية المتناقضة، أصبح يعرض ـ كتاريخ الصراع الطبقي الثوري التحرري ضد هذه او تلك من أشكال الاستثمار والاضطهاد، التي يخلقها تطور اسلوب الانتاج، والقوى المنتجة والعلاقات الانتاجية، في المجتمع، تطوراً قانونياً.

لقد انتقد ماركس وانجلس، من مواقع الفهم المادي الجديد للتاريخ، جميع نظريات علم الاجتماع المثالية اللاعلمية، انتقاداً عميقاً، دؤوباً وكان انتقادهما منصباً، قبل كل شيء، على فلسفة التاريخ التي أخذ بها هيغل، والهيغيليون اليساريون.

يقول ماركس وانجلس: «ان الفهم الهيغيلي للتاريخ يتطلب وجود الروح المطلقة، او المجردة، التي تتطور بحيث ان الانسانية لا تمثل الا جماهير حاملة عن وعي او غير وعي لهذه الروح»[١٥].

كان هيغل لا يرى في الجماهير الا مادة سلبية لإبداع الروح المطلقة المتمثلة تحت شكل روح عالمية وروح قومية. هذه النظرات المثالية التي اخذ بها هيغل وجدت تعبيرها الاكثر تشوهاً في فلسفة اتباعه الهيغيليين اليمنيين واليساريين.

كان الهيغيليون اليساريون، أمثال: «برونو بادير» وغيره يقتفون أثر هيغل، ولا يرون في الشغيلة الا «مادة» جامدة، الا «عدواً للروح» والتقدم. كانوا ينظرون، بكل عجرفة وغطرسة الى الجماهير الشعبية نظرتهم الى أبله جاهل «غير نقدي»، نظرتهم الى جمهور مغرور. وكانوا يعارضون الجماهير بـ «نقد النقد» أي بفئة المثقفين البرجوازيين باعتبارها الحاملة الوحيدة للروح، للعقل. واعتبروا هذه الفئة المترفعة عن الشعب، والناظرة اليه بازدراء وتعجرف، اعتبروها القوة المحركة للتقدم التاريخي. يقول ماركس وانجلس في تعريتهما لجوهر نظريات الهيغيليين اليساريين، الرجعي: «ان العلاقة التي اكتشفها «برونو» بين «الروح» و «الجمهور» ليست عملياً غير نهاية ممسوخة انتقادية للفهم الهيغيلي

(١٥) ماركس وانجلس: المؤلفات، الطبعة الثانية. المجلد الثاني. ص ٩٣.

للتاريخ، هذا الفهم الذي ليس، بدوره، إلا تعبيراً خيالياً مفرطاً عن العقيدة الالمانية المسيحية، حول تعارض « الروح » و« المادة»، « الاله والعالم»[16]. وتعرض هذه المعارضة كما لو أن في التاريخ « بعض الافراد المختارين، تحت شكل روح « فعالة »، يجابهون الانسانية المتبقية، باعتبارها جماهير غير روحانية، باعتبارها « مادة »[17]. وقد اكد « برونو بادير » بان القضايا الكبيرة في التاريخ انتهت الى الاخفاق لأن الجماهير اهتمت بها وشاركت فيها. ان الفكرة العظيمة، حسب تصوره، إذا ما اخذت بها الجماهير، تحولت، بفعل ذلك الى فكرة « عامية »، سطحية، وفقدت عظمتها. ويضرب الهيغيليون اليساريون على ذلك مثلاً يزعمون انه يدعم نظرتهم، هو تجربة الثورة البرجوازية الفرنسية.

ان ماركس، وقد عرى « فلسفة التاريخ » المصطنعة هذه،أشار الى ان « نقد » « برونو »، بالذات، لا الجماهير، هو النقد الابله، التافه، المغرور، غير النقدي. إذ لم يلحظ هذا « النقد » ان « الفكرة » تفقد عظمتها فقط عندما تنفصل عن مصالح الجماهير الشعبية وحاجاتها. يقول ماركس: « كانت مصالح برجوازية فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، تبدو قوية حتى أنها استطاعت التغلب لا على الملكية البونابارتية فحسب، بل وعلى ديكتاتورية اليعاقبة الثورية وعلى ديكتاتورية نابليون العسكرية. لقد كانت ثورة عام ١٧٨٩ البرجوازية، في فرنسا، محدودة لا لأن أيديولوجيتها وقادتها نادوا بمصالح الجماهير، لا لأن الجماهير شاركت فيها مشاركة فعالة (وفي هذا بالذات، تكمن قوة الثورة وعظمتها)، بل لأن هذه الثورة لم تتمكن من تلبية ـ مصالح الجماهير الشعبية، الجذرية بسبب طبيعتها البرجوازية، الطبقية، بسبب أفكارها وأهدافها المحدودة.

وأشار ماركس الى ان الجماهير الشعبية التي يتصورها الهيغيليون

(١٦) ماركس وانجلس: المؤلفات، الطبعة الثانية. المجلد الثاني. ص ٩٣.
(١٧) المرجع ذاته.

تحت شكل « مادة » جامدة، لا يجمعها اي جامع مع الجماهير الشعبية الحقيقية، التي تنقسم الى طبقات « بينها تناقضات واسعة»،والتي تحرك، بتصارعها، تطور المجتمع. ويطالب الهيغيليون اليساريون بالاستعاضة عن صراع الطبقات الحقيقي، وعن الثورة الاجتماعية، بثورة في وعي الذات، في وعي الناس. وقد أجاب ماركس وانجلس على ذلك قائلين بان القيود الحقيقية التي تكبل الشغيلة والجماهير المستثمَرة، لا يمكن تحطيمها عن طريق اجراء تبديل في وعي الذات أو الوعي فقط، فلا بد لتحطيمها من قوة مادية حقيقية، من صراع الجماهير، من الثورة. ويمكن للأفكار أن تصبح، قوة مادية، وهي كذلك بالفعل، إنما عندما تتملك الجماهير وتحفز نضالها وتنظمه وتوجهه.

وحين عرى ماركس النظريات المثالية الرجعية عن « الابطال والجمهور »عرض فكرة تذهب الى انه « مع رسوخ العمل التاريخي، تتعاظم ايضاً اعداد الجماهير التي يصبح هذا العمل قضيتها »[١٨].

وقد ثمَّن لينين هذه الفكرة كاحدى أهم افكار الماركسية، الفلسفية التاريخية، وكان نقد ماركس للهيغيليين اليساريين، موجهاً، بشكل خاص، ضد الغطرسة والعجرفة اللتين يبديهما ايديولوجيو البرجوازية نحو جماهير الشغيلة، نحو البروليتاريا. وقد صدر هذا النقد باسم « الشخص الانساني الحقيقي » أي العامل، الذي تسحقه الطبقات السائدة وحكوماتها. وطالب هذا النقد بالنضال من اجل بناء افضل للمجتمع. واكتشف ماركس وانجلس في البروليتاريا تلك القوة الاجتماعية القادرة على خوض هذا النضال وعلى قيادته، والتي لها مصلحة حيوية في إعادة بناء المجتمع جذرياً، على أسس جديدة اشتراكية.

وعمد ماركس وانجلس في كتابهما « الايديولوجية الالمانية » الى توجيه نقد الى النظرات البرجوازية المثالية التي حملها ايديولوجي الفوضوية « ماكس شتيرنر » الذي جابه الجماهير، الجماعة، الشعب،

(١٨) ماركس وانجلس: المؤلفات، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، ص ٩٠.

بالفرد. وهو حين كان يناضل في سبيل حرية الفرد، انما كان يدّافع عن مصالح الانانية البرجوازية، التي لا تقترن بشيء خارج «أنا» ها. وأشار ماركس وانجلس، في تعريتهما المحتوى المثالي البرجوازي «شتيرنر» حول حرية الفرد «المستقل»، و «استقلاليته» عن المجتمع،أشارا الى ان تطور كل فرد مشروط، دائماً، بتطور الناس الآخرين، الذين يقيم معهم علاقات مشتركة، مباشرة او غير مباشرة. فالفرد لا يمكنه ان يوجد او يتطور الا في المجتمع.

وأبان ماركس وانجلس قانونية الصلة التاريخية القائمة بين الأجيال المتعاقبة. ان الاجيال مرتبطة فيا بينها بصلة ضرورية. ووجود أناس جيلٍ ما ،يتحدد بأسلافهم من الجيل السابق. فكل جيل جديد يأخذ عن الاجيال السابقة ما راكمته من القوى الانتاجية والقيم الثقافية. ثم وجه ماركس وانجلس نقدهما الى أفكار الكاتب الانكليزي، «توماس كارليل» الرجعية، الى نظريته المثالية عن عبادة الفرد في التاريخ، نظرية «الأبطال والجمهور».

لقد أكد «كارليل» في كتابه «الأبطال والبطولة في التاريخ» (١٨٤١) ان تاريخ المجتمع ليس أكثر من تحقيق أفكار الأشخاص العظام. ان الانسان العظيم، حسب «كارليل» هو المعبر عن العناية الالهية، اما الآخرون فهم بحكم الأموات، إنهم «جمهور» عليه ان يتبع خطى الأبطال بعيون مغمضة. والمجتمع ينبغي ان يبنى على أساس احترام الأبطال باعتبارهم من ذوي الالهام الالهي. وينكر «كارليل» الديمقراطية، ويتصورها شيئاً غير طبيعي، ومناقضاً لقوانين الطبيعة والتاريخ، «الخالدة»، يتصورها مرضاً يصيب المجتمع، وينتهي به الى الانهيار. ويتابع قائلاً بأن العالم رفع درجات فوق بعضه، تتبوأ ذروته الملوك، ولا يكشف عن أسراره الا للمختارين من أبنائه. وينبغي البحث في صفوف «المتعلمين» عن ذوي الالهام الالهي من «الحكماء» و«النبلاء».

يقول ماركس: «في هذه النظرة تصبح جميع التناقضات الطبقية الواقعية، على شدة تباينها في العهود المختلفة، عبارة عن تناقض عظيم،

خالد، وحيد، بين اولئك الذين عرفوا قانون الطبيعة، الخالد ويعملون وفق متطلباته، وهم الحكماء والنبلاء، وبين أولئك الذين يفهمون هذا القانون فهماً خاطئاً، ويشوهونه، ويعملون بعكس ما يتطلبه، وهم البلهاء، والمحتالون »[١٩].

ان فلسفة التاريخ عند «كارليل» تعكس نظرات الارستقراطيين الاقطاعيين، الرجعية حول الحركات الشعبية أيام الثورات البرجوازية. يقول ماركس بان انتقاد الحاضر، في جميع مؤلفات «كارليل» وثيق الارتباط بتبجيل واطراء القرون الوسطى تبجيلاً واطراءً مناهضين للتاريخ بشكل مذهل.

وقد تبدى الطابع الرجعي المعادي للشعب، لفلسفة التاريخ هذه، بوضوح خاص، في مذكرات كارليل ضد ثورات ١٨٤٨ التي اندلعت في البلدان الاوروبية. لقد صور «كارليل» هذه الثورات، كفوضى، كانتفاضة رعاع. لقد دعا «كارليل» الواقف بصراحة، الى جانب الثورة المضادة الاقطاعية البرجوازية، دعا البرجوازية الى مساندة الارستقراطية من أجل كبح جماح الشعب. ووجه «كارليل» سخطه ضد طبقة العمال الاجراء داعياً الله الارستقراطيين و«قادة الصناعة» إلى إخماد روح العمال، الثورية، بالرصاص والسجون.

لهذا بالذات نجد بعض ايديولوجي الامبريالية المعاصرين يلجأون الى فلسفة التاريخ عند كاريل فهي تعبّر فيما تعبِّر، عن حقدها على الطبقة العاملة.

ولهذا أيضاً لجأ الفاشيست الالمان في زمانهم الى فلسفة نيتشه وشبينغلر، المعادية للانسان.

وما يزال أيضاً، بعض ايديولوجي الاشتراكيين اليمنيين يرددون ويطورون الافكار البرجوازية عن «الابطال والجمهور» مخفين الجوهر

(١٩) ماركس وانجلس: المؤلفات، الطبعة الثانية، الجزء ٧، ص ٢٧٤.

الرجعي لهذه الافكار بجمل عن الاشتراكية والديمقراطية. وسنتحدث عنهم فيما بعد.

٣ ـ الأسس النظرية لحل قضية دور الجماهير الشعبية في التاريخ، حلاً ماركسياً لينينياً.

ان الأساس العلمي لدور الجماهير، الشعبية، في التاريخ تقدمه لنا نظرية الماركسية اللينينة عن المجتمع، ولا سيما المادية التاريخية التي تعتبر تطبيقاً لنظرات المادية الديالكتيكية على الظواهر الاجتماعية، وعلم قوانين التطور الاجتماعي العامة، والطريقة الدياليكتيكية المادية لمعرفة تاريخ المجتمع وتحويله ثورياً، هذا الأساس العلمي لدور الجماهير الشعبية في التاريخ تقدمه لنا النظرية الماركسية حول قوانين تطور المجتمع وتبدل اساليب الانتاج، ونظرية الصراع الطبقي كقوة محركة لتطور المجتمع الطبقي، والنظرية الماركسية اللينينية حول الثورة وديكتاتورية البروليتاريا، والتي تتضمن هنا فيما تتضمنه القضية الفلاحية، والقضية الوطنية، ونظرية الشيوعية العلمية التي تبين قانونية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، وقانونية بناء المجتمع الشيوعي. كما تعطي هذا الأساس العلمي لدور الجماهير الشعبية في التاريخ. النظرة الماركسية اللينينية حول قانونيات تطور البنيان التحتي والبنيان الفوقي، والنظرية الماركسية حول الثقافة، وحول الحزب الشيوعي باعتباره قائد الجماهير الشعبية ومنظمها في نضالها من أجل انتصار الشيوعية.

مفهوم الشعب

تنبذ الماركسية اللينينية، بكل قوة، المفاهيم المثالية والميتافيزيقية، بما فيها مفاهيم الشعبين عن الشعب، كجوهر ثابت غير متبدل، يعمل خارج الزمان والمكان، خارج الظروف التاريخية المشخصة.

ان قسماً كبيراً من النظريات المثالية تصور الشعب « كجمهور » سلبي، جامد، يعيش بقوة الاستمرار، « كقطيع » فوضوي، لا عقل له، ويتحرك عشوائياً، وبشكل عفوي وتهديمي، معادٍ « للنظام » والتقدم والمدنية والثقافة. وهذه النظريات بطمسها التناقضات الطبقية في المجتمع البرجوازي إنما تضع الجماهير الشعبية في مجابهة مع « النخبة » المختارة التي تعتبرها القوة المحركة الرئيسية للتاريخ.

إن الماركسية اللينينية تدحض جذرياً هذه النظريات الرجعية اللاعلمية. وتقدم المفهوم العلمي المادي الديالكتيكي، الوحيد عن الشعب، كمقولة تاريخية اجتماعية. وتدرس الماركسية اللينينية كل شعب في تطوره التاريخي، موضحة مختلف مراحل تطوره، ومشيرة الى الطبقات والفئات والجماعات التي يتألف منها الشعب في هذه المرحلة التاريخية او تلك، وتدرس ظروف معيشة، ونشاط، وتطور، ونضال، مختلف فئات الشعب، وما هي الفئات التي تبدو باهدافها، وتطلعاتها، طليعية، تقدمية، ثورية، وما هي الفئات المتخلفة، المحافظة، الرجعية. ولهذا فان مفهوم الشعب يتبدل، وينبغي ان يتبدل، لكي يعكس، بشكل صحيح، التطور التاريخي للشعوب التي تعيش وتعمل في ظروف اجتماعية متبدلة.

ان ما نعنيه، عادة، بتعبير « الشعب » و« الجماهير الشعبية » في الادبيات السياسية ـ الاجتماعية والماركسية التاريخية، هو، قبل كل شيء، الجماهير الأساسية من الناس في أي مجتمع[٢٠]، وتعتبر جماهير الشغيلة أساس الشعب، ونواته، في جميع الأزمان، هذه الجماهير التي تكوّن معظم السكان في التشكيلات الاجتماعية التناحرية، وجميع السكان في المجتمع اللاطبقي،

(٢٠) لا شك ان هذا لا ينفي، اطلاقاً، استعمال تعبير « الشعب »، سواء في العلم التاريخي بشكل عام، او في الاتنوغرافيا. بشكل خاص، وفي معنى آخر، استعماله للدلالة على الامة، او مثل هذه المفاهيم الاتينوغرافية والتاريخية، كالقوم تمييزاً له عن الامة والقبيلة والعشيرة. ان القوم او الشعب، كمقولة اتينوغرافية، هو جماعة من الناس تنشأ، تاريخياً، نتيجة تفسخ نظام المشاعة البدائية وتكون المجتمع الطبقي، وتقوم على أساس اللغة المشتركة والحياة المشتركة على أرض عامة خلال العديد من الاجيال.

بما فيه المجتمع الشيوعي. وتحت هذا المعنى سنستخدم التعبير المذكور في هذا المؤلف أيضاً.

في المجتمع الطبقي يتوزع الشعب الى طبقات تتمايز فيما بينها بالوضع الاقتصادي: من حيث ارتباطها بوسائل الانتاج، ومن حيث مصادر دخلها، ومن حيث مصالحها الاقتصادية والسياسية وأهدافها وتطلعاتها الى المجتمع الطبقي التناحري الذي يشكل طبقات الشغيلة، المضطهَدة، المستثمَرة، التي تجابه الطبقات السائدة المستثمِرة، الجماهير الاساسية من الشعب. كان الشعب، في مجتمع الرق، يضم، قبل كل شيء، الارقاء المستثمرين من قبل مالكيهم، الناس البسطاء المولودين أحراراً، وفئات السكان المالكة او ذات الملكية القليلة. واما في المجتمع الاقطاعي فالشعب يتكون من الفلاحين والحرفيين تمييزاً لهم عن الاقطاعيين، المدنيين والروحيين، الذين يعارضون الشعب، كطبقات تنعم بامتيازاتها الخاصة، وفي المجتمع الرأسمالي يتكون الشعب من البروليتاريا والفلاحين، وفئة المثقفين الشغيلة، والحرفيين، وفقراء المدينة والريف. وقبل بروز البروليتاريا، على المسرح، التاريخي، كانت تبرز على رأس الحركات الشعبية، فئات طليعية منحدرة عن الطبقات السائدة: ملاك الرقيق والاقطاعيين والبرجوازيين أو ممثلو هذه الطبقات. كانت الفئة الديمقراطية من طبقة ملاك الرقيق اليونانيين القدماء، عندما كانت هذه الطبقة تسير في خطها الصاعد، وتساعد على التقدم، كانت هذه الفئة تتزعم الشعب في اليونان القديمة في صراعه ضد ارستقراطي أسياد الرق، وفي نضاله ضد المحتلين الأجانب، ونرى الأمر ذاته في تاريخ روما القديمة.

ان الامراء الموسكوبيين الذين كانوا يمثلون طبقة الاقطاعيين وكبار الملاكين العقاريين و... كانوا على رأس الشعب الروسي في نضاله ضد الطغيان التتاري، وضد التجزئة، الإقطاعية، وفي سبيل توطيد الحكومة الروسية المركزية.

كما ان البرجوازية الفرنسية كانت، في مرحلة الثورة البرجوازية في

نهاية القرن الثامن عشر، على رأس الشعب الفرنسي الذي أطاح بسيطرة الاقطاعيين.

لقد عاشت الجماهير الشغيلة، على امتداد العهود الكبيرة الثلاثة: عهد الرق، وعهد الاقطاع، وعهد الرأسمالية، تحت سيطرة الطبقات المستثمِرة. صحيح ان أشكال الاستثمار والاضطهاد تبدلت، ولكن الاستثمار والاضطهاد، ذاتهما، ظلا قائمين. كانت كل طبقة جديدة من المستثمِرين مضطرة في سعيها الى السلطة الى القضاء على سيادة الطبقة المستثمِرة السابقة،الى الاعتماد الى هذا الحد او ذاك على الشعب، على جماهير الشغيلة المضطهدة، فمثلاً كانت البرجوازية في اوروبا الغربية، مجبرة في نضالها ضد الاقطاعية، في عهد الثورات الديمقراطية البرجوازية، على الاعتماد على جماهير الشعب الواسعة كما كان ايديولوجيو هذه الطبقة يعتبرون انفسهم وطبقتهم من الشعب، واضعين الشعب في تعارض مع الارستقراطية والنبلاء ورجال الكهنوت، باعتبارهم طبقة طفيلية ضارة بالمجتمع.

وكان ايديولوجيو البرجوازية الثورية يتكلمون باسم الشعب جاعلين من مصالح الشعب، ومصالح البرجوازية أمراً واحداً. وذهبوا الى ان لهم بعض الحق على الشعب ما دام نضال البرجوازية ضد الكهنوت يتجاوب ومصالح الجماهير الشعبية الواسعة. بيد ان مصالح الطبقات المستثمِرة لم تكن في يوم من الايام، منسجمة كل الإنسجام مع مصالح معظم أبناء المجتمع. وبقيت البرجوازية دائماً مستثمرة للشغيلة. إن مصالح وتطلعات المستثمِرين والمستثمَرين لم تندمج كلياً، ولم تصبح شيئاً واحداً حتى في النضال ضد الخطر الخارجي، ضد الاستعباد الأجنبي، ضد الأعداء المشتركين الخارجيين. غالباً ما حدث أن الطبقات المستثمِرة كانت تزعم أنها تسعى في سبيل المصلحة الشعبية العامة، في حين كانت، عملياً، تسعى وراء مصلحتها الطبقية الأنانية الخاصة.

وفي الوقت الحاضر تجعل البرجوازية الرجعية نفسها، بسياستها وبنشاطها كله، مناهضة للشعب، وتدخل في نزاع ضارٍ معه وتظهر نفسها كقوة معادية للشعب.. انها تقود الهجوم ضد الحريات الديمقراطية البرجوازية،

وتدوس مبادىء سيادة الامم، وتخون مصالح بلادها، الوطنية من اجل الاحتفاظ بسيطرتها، وزيادة أرباحها. وبهذا يتزايد ضعف مواقعها وتأثيرها في أوساط الشعب، ولهذا كان دمج البرجوازية الامبريالية، الرجعية المعادية للشعب، في مفهوم «الشعب» غير صحيح.

أما الشعب في البلدان الرأسمالية المعاصرة، فيتضمّن الطبقة العاملة والفلاحين، وفئة المثقفين، والطبقات الشغيلة، وقوى المجتمع التقدمية المناضلة ضد الامبريالية، والاستعمار، والعدوان الامبريالي والرجعية. وفي مرحلة الامبريالية والثورات البروليتارية تسير على رأس الشعب، كقاعدة البروليتاريا ـ الطبقية الاجتماعية الأكثر طليعية والتي تسير بالثورة حتى النهاية، والتي تصبح مهمتها التاريخية القضاء على مختلف أشكال استثمار الانسان للإنسان، وبناء المجتمع الشيوعي.

ان الجماهير الشعبية في العصر الحديث ليست تلك التي كانت في عهد الرق، وعهد الاقطاع، وعهد الرأسمالية الصناعية ما قبل الاحتكارية. وقد أدى انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية، وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، وبناء الاشتراكية في البلدان الأوروبية. وفي غيرها من بلدان آسيا، أدَّى هذا كله الى تغيير طابع شعوب هذه البلدان تغييراً جذرياً، وأثر تأثيراً بالغاً في تطور النضال الثوري لدى شعوب العالم كله.

ان مفهوم «الشعب» في الاتحاد السوفياتي الذي انتصرت فيه الاشتراكية يشتمل على جميع الناس: العمال، والفلاحين، والمثقفين. اما في بلاد الديمقراطيات الشعبية فيشتمل مفهوم «الشعب» على الطبقة العاملة، وطبقة الفلاحين، وفئة المثقفين، والحرفيين والبرجوازية الوطنية التي تناهض الاستعمار، وتشارك في تحويل وطنها، ثورياً.

لهذا فعند معالجة مفهوم «الشعب» لا بد من معالجته بشكل تاريخي مشخّص، آخذين بعين الاعتبار مستوى تطور المجتمع الذي بلغه هذا البلد او ذاك، والطبقات التي يتكون منها السكان، والوضع الذي يعيشون ويناضلون فيه والمجتمعات التي تحبها جمهرتهم الاساسية. ان الجماهير الشعبية في زماننا، تناضل في العالم كله ضد الاضطهاد الاجتماعي، وفي

سبيل السلم، والديمقراطية والاشتراكية. وضد الاستعمار، في سبيل الاستقلال الوطني. وفي هذا النضال ينمو ادراكها، وصلابتها وتنظيمها.

ان المعالجة المادية الدياليكتيكية لمفهوم «الشعب» تتطلب، بعد الانطلاق من أوضاع الطبقات والجماعات الاقتصادية ومن مصالحها وتطلعاتها، هذه الطبقات والجماعات التي تشكل المجتمع، في مرحلة معينة، تتطلب تحديد علاقاتها بهذه المهمات الشعبية العامة او تلك وتحديد قدرتها على المساهمة في حل هذه المهمات حلاً فعالاً الى هذا الحد او ذاك. يقول لينين: «عندما استعمل ماركس كلمة «الشعب» لم يطمس بهذه الكلمة الفوارق الطبقية بل جمع ما بين عناصر محددة قادرة على السير بالثورة حتى النهاية»[٢١].

وقد أشار ماركس ولينين الى ان الشعب، في مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية، أي العمال، والفلاحين، والبرجوازية الصغيرة، قادر لا على دعم الثورة فحسب، بل وعلى السير بها، أيضاً، الى النهاية.

وقال لينين، متحدثاً عن القوى المحركة في الثورة الروسية عام ١٩٠٥، ان القوة القادرة على السير بالثورة حتى النصر، «لا يمكن ان تكون غير الشعب، اي البروليتاريا والفلاحين، اذا ما اكتفينا بذكر القوى الاساسية الكبرى»[٢٢].

وكتب لينين في مكان آخر يقول: «ان من الخطأ الفادح نسيان المرء انه مع تطور الثورة، وتزايد مهماتها، تتغير أيضاً بنيتها الطبقية وعناصر الشعب القادرة على المساهمة في النضال في سبيل تحقيق تلك المهمات»[٢٣]. وقد وضع لينين أمام حزب الطبقة العاملة مهمة السمو بفئات الشعب ذات المصلحة في انتصار الثورة، واجتذابها الى النضال الثوري.

وحين حدد لينين القوى المحركة في الثورة الروسية في مرحلتيها

(٢١) لينين: «المؤلفات»، الجزء التاسع ص ١١٢.
(٢٢) المرجع ذاته ص ٤٠.
(٢٣) لينين: المؤلفات، الجزء ١١، ص ٢٢٦.

المتباينتين، مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية، ومرحلة الثورة الاشتراكية، جسّد محتوى مفهوم «الشعب» و«الثورة الشعبية». مندداً للوهلة الاولى، انه ما دامت الطبقة العاملة، والفلاحون الفقراء، هم القوى المحركة في الثورة الاشتراكية، والبروليتاريا، وطبقة الفلاحين كلها، والبرجوازية الصغيرة، وحتى البرجوازية المتوسطة والكبيرة في ظروف معينة، هي القوى المحركة في الثورة البرجوازية الديمقراطية، كما لو ان الثورة البرجوازية الديمقراطية هي اكثر جماهيرية وشعبية، من الثورة الاشتراكية، إلا أننا إذا انطلقنا من وجهة نظر الدياليكتيك، وبعد القيام ببحث معمق للواقع، نتبين بكل وضوح ان الامر هو على عكس ما يبدو. فالثورة تصبح أكثر شعبية وأعظم جماهيرية كلما «ارتدت» عنها البرجوازية المتأرجحة، والفئات المالكة، وحلت محل هذه الجماعات جماهير الشعب، الفقيرة في القاعدة. ان الثورة الاشتراكية هي التي تسمو الى الابداع التاريخي الحاسم، الفعال، بـ «سوقة» المجتمع، «أعظم كتلة» فيه، بأوسع جماهيره، جماهير البروليتاريا في المدينة وجماهير الفقراء الريفيين، والحق ان البرجوازية، والفئات الميسورة، والحفنة العليا في المدينة والريف، ليست هي مَنْ تجعل مِنْ هذه الحركة او تلك، حركة جماهيرية، شعبية حقة، ان الذين يجعلونها كذلك هم: الطبقة العاملة، والاجراء الزراعيون، وفقراء الفلاحين، هؤلاء جميعاً هم الذين يشكلون غالبية الشعب، العظمى في أي بلد رأسمالي.

ان الماركسية اللينينة تميز في الشعب مختلف الطبقات، وتبرز وضع الطبقة العاملة، ومصالحها ودورها، لا من أجل جعل البروليتاريا منطوية على ذاتها، وحاصرة مهامها في إطار مصالحها الطبقية الضيقة، رافضة حل المهمات الشعبية العامة، منفصلة عن جماهير الشغيلة الاخرى، بل من أجل ان تفهم البروليتاريا، بوضوح، دورها القيادي التاريخي، دورها كقائد للشغيلة جميعاً. ان على البروليتاريا وحزبها، في قيادتهما نضال الجماهير الشعبية، الثوري، ان يفهما مصالح وميول جميع فئات الشعب، وان يأخذا بالحسبان تلك المصالح التي تجمع وتفرق بينها. وعلى البروليتاريا ان تكون

قادرة على تحقيق سياستها الخاصة في جميع مراحل النضال الثوري، وان تصبح قوة الشعب الموجهة القائدة المنظمة، في النضال من اجل سلم وطيد بين الشعوب، ومن أجل الديمقراطية والاشتراكية.

الجماهير، والطبقات، والأحزاب، والقادة.

أثبت لينين، في معرض نضاله ضد «الشعبيين»، ودفاعه عن الماركسية وتطويره إياها، أنه لا ينبغي الحديث عن الشعب، عن الجماهير الشعبية، بشكل عام، دون ان نوضح الطبقات التي تتكون منها الجماهير. فالجماهير الشعبية ليست طينة طرية، ليست مادة خاملة بين يدي «الأبطال» الذين يستطيعون، على حد زعمهم، تكوينها كما يحلو لهم، وجرها وراءهم الى حيث يريدون. ان مصالح الجماهير، واهدافها ومسلّماتها لا تتحدد بارادة الابطال والزعماء، بل بحياة الجماهير، اليومية، الاجتماعية، بأوضاعها الاقتصادية، وبدورها في الانتاج الاجتماعي.

ان الشعب يتكون، في المجتمع الطبقي، من طبقات متباينة. ولكل طبقة اجتماعية خصائصها، ومصالحها الطبقية الخاصة، التي ينبغي على الاحزاب والزعماء الذين يتصدون لقيادة هذه الطبقات، ان يأخذوها بعين الاعتبار.

وليس الحزب السياسي إلاّ جزءاً متقدماً من الطبقة، إلا طليعتها، إلاّ قائدها السياسي ومنظمها. ليست بالنسبة الى الطبقة، سوى جزء من كل. وكل طبقة منافحة عن مصالحها، تنحو الى توطيد سلطتها، الى توطيد قيادتها الحكومية للمجتمع. ومن أجل هذا تعمل الطبقة على تأسيس حزبها السياسي الذي يدافع عن مصالحها. ويقود نضالها الطبقي الذي هو، بشكل خاص، نضال في سبيل السلطة، في سبيل قيادة الدولة للمجتمع.

ويقود نضال الطبقات والاحزاب قادة سياسيون، وشخصيات اجتماعية بارزة. يقول لينين في تبيانه هذه الناحية الهامة من قانونيات التطور الاجتماعي:

«لم يكن بامكان أية طبقة في التاريخ ان تحقق سيطرتها اذا لم تبرز قادتها السياسيين، ممثليها الطليعيين القادرين على تنظيم حركتها وقيادتها. وقد أثبتت الطبقة العاملة الروسية انها قادرة على ابراز مثل هؤلاء الناس»(٢٤).

لقد وجه لينين نقداً لاذعاً لنظرات الشيوعيين الالمان «اليساريين» الذين اخذوا، تحت تأثير الروح الفوضوية، ينفون دور قادة الطبقة العاملة، ويحاولون مجابهة القادة بالحزب، والحزب بالطبقة العاملة. وقد أبان لينين ان هذا شطط، وانه لا ينبغي مجابهة الحزب البروليتاري بالطبقة العاملة، وقادة الطبقة العاملة بالحزب.

«فمن المعلوم أن الجماهير تنقسم الى طبقات، وأنَّ معارضة الجماهير بالطبقات غير ممكنة إلا إذا عارضنا الغالبية العظمى بشكل عام، دون ان نقسمها وفق وضعها في نظام الانتاج الاجتماعي، بالفئات التي تحتل وضعاً خاصاً في النظام الاجتماعي للانتاج، من المعلوم ان الاحزاب السياسية هي التي تقود الطبقات عادة، وفي معظم الظروف، وعلى الاقل في البلدان المتمدنة الحديثة، وان الاحزاب السياسية، تقودها، بشكل عام، جماعات ثابتة، الى هذا الحد او ذاك، من الافراد الاكثر نفوذاً وتأثيراً، وخبرة، والمنتخبين لإشغال المراكز الحساسة، والذي يطلق عليهم كلمة الزعماء. كل هذا شيء بديهي. كل هذا واضح وبسيط. فلماذا نستعيض عن هذا الوضوح بالغموض؟»(٢٥).

لقد أثبتت الماركسية خطل جميع النظريات المثالية (الذاتية والجبرية) التي تريد، ميتافيزيقياً، معارضة الفرد، والطبقات والجماهير بالظروف الموضوعية والضرورة التاريخية.

يقول لينين: «ان الماركسية تتميز عن جميع النظريات الاشتراكية الاخرى، بالجمع البارع بين التبصر العلمي التام في تحليل وضع الاشياء،

(٢٤) لينين: «المؤلفات» الجزء الرابع. ص ٣٤٥.
(٢٥) لينين: «المؤلفات» الجزء ٣١، ص ٢٤.

الموضوعي، والسير الموضوعي للتطور وبين الاعتراف الجازم بأهمية الطاقة الثورية، والابداع الثوري، والمبادرات الثورية، عند الجماهير، والاعتراف الجازم أيضاً بأهمية الشخصيات، والجماعات والاحزاب القادرة على تلمس وتحقيق الصلة بهذه الطبقات او تلك »[٢٦].

ان الماركسية اللينينية تعطي الحل العلمي لقضية العلاقة بين الجماهير والطبقات والاحزاب وبين الشخصيات، والقادة، البارزين، ناظرة اليهم، نظرة حسية من خلال حركة المجتمع التاريخية القانونية. وهي تظهر الطبقات التي تتكون منها الجماهير الشعبية في كل مرحلة تاريخية وفي هذا البلد أو ذاك، وما هي ظروف معيشتها، ومصالحها الطبقية وتطلعاتها وهي، حين تدرس نشاط الاحزاب السياسية والشخصيات الاجتماعية، والقادة تبين مصالح الطبقات والكتل الاجتماعية التي يعبرون ويدافعون عنها.

وتظهر الماركسية اللينينية كيف ان طبقات معينة، كطبقة البرجوازية، مثلاً، تتحول، في مسيرة التطور التاريخي، من طبقات تقدمية، وحتى ثورية، الى طبقات محافظة، ورجعية ومناهضة للثورة، اكثر فأكثر، وكيف يتبدل وفقاً لذلك، طابع احزاب هذه الطبقات، السياسية، وايديولوجيتها، وبرامجها، وسياستها، وعلاقتها بالطبقات الاخرى. ان أحزاب البرجوازية الامبريالية، السياسية، الحديثة تتمايز عن احزاب البرجوازية الثورية في القرن الثامن عشر. كما ان الماركسية ترى الفرق بين احزاب البرجوازية الامبريالية وبين احزاب البرجوازية الوطنية، الحديثة، في البلدان المضطهدة التي تساهم في حركة التحرر الوطني ضد الامبريالية، بينها وبين البلدان البرجوازية التي تحررت لتوها من الاضطهاد الاستعماري، وتناضل من أجل توطيد الاستقلال الوطني. وتبدو الطبقة العاملة اعظم طبقة تقدمية، وثورية حتى النهاية في المجتمع الحديث. انها وحدها، بحزبها، وايديولوجيتها، وقادتها، تعبر عن مصالح

(٢٦) لينين: « المؤلفات » الجزء ١٣، ص ٢١ - ٢٢.

الشغيلة الجذرية وتدافع عنها. ولهذا بالذات، فان الجماهير الشعبية، تنتقل وستنتقل مع تطور وعيها الطبقي، بكل حزم الى جانب الطبقة العاملة وحزبها الماركسي اللينيني، ناظرة اليهما، كحليف أمين ومنظم وقائد ويتزايد دعم الجماهير الشعبية الحازم للسياسة التي تنتهجها الطبقة العاملة وحزبها.

إن مصدر التناحر بين البرجوازية والجماهير الشعبية انما يكمن في نظام المجتمع الرأسمالي، الاقتصادي. وتدفع الرأسمالية الاحتكارية تناقضات النظام الرأسمالي وتناحراته الى حدها الاعلى، الى الذروة التي لا بد، بعدها، من اندلاع الثورة الاشتراكية.

إن النظريات البرجوازية الرجعية عن «الأبطال» و«الجمهور العامة»، عن الشخصيات العظيمة والجماهير تحاول ان تطمس التناقض بين البرجوازية والجماهير الشعبية وفي حين يخفي علماء الاجتماع البرجوازيون، وساسة البرجوازية وكتّابها، تناقضات المجتمع التناحري، بقبول الجماهير الشعبية وجهاً لوجه أمام الشخصيات «المختارة»، أمام «النخبة». ويعرضون تناقضات المجتمع البرجوازي، الطبقية كتناقضات بين الحاكم والمحكوم بين الشخصيات والجماهير بين «الابطال» و «الجمهور».

هذا الاتجاه يتبدى في العديد من الكتب والمقالات، التي يحررها الكتاب البرجوازيون في الولايات المتحدة، وانكلترا وفرنسا. فالتناقضات الطبقية بفضل النظر اليها كقضية جماهير وزعماء وقادة. والهدف الاساسي «لمؤلفات» العديد من علماء الاجتماع البرجوازيين هو تبيان كيف ينبغي ان يعمل قادة البرجوازية وزعماؤها ورؤساؤها من أجل اخضاع الجماهير الشعبية.

وتعتبر محاكمات «ولتر هاريمان» في كتابه «أوهام عن الجماهير»، شيئاً نموذجياً في هذا الخصوص. يستنتج هاريمان، بعد بحثه الواسع عن العلاقة بين القادة والمقادين، أن مفهوم «الجماهير» عاجز عن توضيح الظواهر الاجتماعية، وأن هذه الكلمة «التناقضية» الغامضة تحجب

جوهر الظواهر ، الحقيقي ، هذا المفهوم هو أحجية ، شأنه شأن مفهوم « الرأي العام ». (جميع الظواهر الاجتماعية غدت الآن بالنسبة الى علم الاجتماع البرجوازي الرجعي ، سراً وأحجية).

إن مفهوم « الجماهير الشعبية » في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر لا يشتمل على شيء من العلمية والتشخيص ، إنه لا يعبر إلا عن مشاعر عداء ، واحتقار وعجرفة أيديولوجي البرجوازية نحو الجماهير . وغالباً ما يُعبَّر ، في آراء علماء الاجتماع والصحفيين البرجوازيين عن الجماهير ، عن موقف احتقاري من الشعب باعتباره « رعاعا » باعتباره « جمهوراً ».

كان يقصد بالجماهير ، من قبل ، « فئات الشعب السفلى ». أما الآن فقد دخلت جماهير الشعب كما يقول هاغيان شاكياً تحت تأثير المذهب البرلماني والنظام السوفياتي ، إدارة الدولة ؛ وأصبحت « الفئات العائدة » الماضية ، محرومة من السلطة . ولم يعد التعليم ، أيضاً ، حكراً « للنخبة » السابقة بل انتشر في صفوف الجماهير و« انحطّ مقامه ». ولم تعد الملكية ، ولا التعليم ، ولا السلطة ، مقاييس كافية للحد من مفهوم « الجماهير ». هذا المفهوم لم يَطِبْ لهاغيان ، الى حدّ أنه يقترح نبذه كلياً والاستعاضة عنه بمفهوم « المقادين ».

هكذا نرى الايديولوجي البرجوازي هاغيان ، يعود ، عملياً ، الى نظرية « الابطال » و« القطيع » الرجعية ، البالية ، والى مجابهة الجماهير بالشخصيات البارزة ، والجمهور بالابطال ، والشعب بالقادة ، بالمعنى الذي أراده نيتشه والفاشيون . ان سر الادارة ، يكمن كما يقول هاغيمان ، لا في اقناع القادة للجماهير وتنظيمهم لها ، بل في « ملاءمة » « المُقادين » للفوهرر ، للزعيم . فكيف يحدث هذا؟ يحدث عن طريق الايحاء ، عن طريق نوع من التأثير المغناطيسي . ان الفوهرر الناجح ، حسب هاغيان ، ليس هو ، في الغالب الاعم ، أكثر الناس ذكاء ، بل ذلك الانسان القادر على تخدير الجماهير . ان هاغيان لا ينكر ان الزعيم ليس شيئاً من غير المقادين ولكنه يؤكد على ان ارادة الزعيم بالذات لا ارادة الجماهير ، هي التي تنفذ ،

وينبغي ان تنفّذ. ان الجماهير لا تنفّذ غير ارادة الزعيم ويحدث احياناً، كما يقول هاغيمان، ان الزعيم الديماغوجي الذي يصور نفسه كمنفّذ لارادة الاكثرية، يصبح «أسير» هذه الاكثرية ويرى نفسه مضطراً الى الذهاب الى أبعد من أهدافه الخاصة، ولكن هذا أمر لا يحدث الا للزعيم الثوري الذي يضطر الى الاعتماد على ارادة الجماهير، في حين ان «الزعيم الشرعي» يعتمد على هيبة النظام القائم وقوته.

ويؤكد هاغيمان في تبريره نظرية الزعامة الفوهريرية هذه ان غالبية الناس متمايزة في الكسل والفكر ولا تستطيع تقدير آراء وأفعال الفوهرر، تقديراً نقدياً. وعلى هذه الغالبية ان تسير وراء الفوهرر سيراً أعمى. وهذا الامر يصوره على انه «قانون التاريخ، الخالد»، الناجم عن «طبيعة» الانسان. إن التلاؤم مع وضع الامور القائم، والخضوع لما هو أقوى، مستقران في أعماق طبيعة الإنسان، كما يعتقد هاغيمان، وهو أمر يعبر عن توق الانسان الى البقاء. وفي سبيل دعم هذه التخرصات يلجأ هاغيمان إلى الفكرة القائلة بأنْ ليسَ كل رقيق أو قن يبتهج لتحرره، وإن الارقاء المتحررين لم يعرفوا، أحياناً، ماذا يصنعون بحريتهم. إن جماهير الشغيلة بحاجة الى، قيادة «ملاّك» الرقيق وأصحاب الاقنان، والرأسماليين، هذا هو جوهر فلسفة هاغيمان.

إن الجماهير الشعبية الواسعة، يتزايد ظهورها، في عصرنا، في ساحة النضال التاريخي. واصبحت متطلباتها اكثر قوة، والحاحاً. وغدت البرجوازية السائدة في البلدان الرأسمالية. أعجز من أن تتجاهل هذه المتطلبات. وأصبح بإمكاننا ملاحظة الاعتراف بمطالب الجماهير، في كثير من كتب علماء الاجتماع البرجوازيين والفلاسفة البرجوازيين وفي مقالاتهم الصحفية.

فنجد، مثلا، في صحيفة «الفكر» الناطقة بلسان «الشخصانيين»، في عدد كانون الثاني ١٩٥٣، مقالاً لجان لاكرو، تحت عنوان له مغزاه «تقدم الجماهير». لقد كان كاتب المقال مضطراً الى الاعتراف بان

البروليتاريا « المذلّة » كما يقول « بالتعويض الناقص » عن عملها ، آخذت تفخر بنفسها كقوة محركة للتاريخ. لقد حولت الاشتراكية البروليتاري، وجعلت منه إنساناً جديداً. وقد اضطر كاتب المقال الى الاعتراف، أيضاً بأن الماركسية لعبت دوراً هاماً في هذا التحويل، وفي دفع البروليتاريا الى الأمام.

ولكن كيف ينظر اصحاب « المذهب الشخصاني » الى الجماهير البروليتارية وحركتها الى الأمام؟ إنهم مجبرون على الاعتراف بأن « التاريخ اليوم، مرتبط، بارتقاء الجماهير »، وبان الطبقة الاكثر حرماناً وعدداً قد توصلت، بفضل الماركسيين، الى ان تعي ذاتها، وان « ثقافة النخبة » أو « ثقافة المختارين المطلعين » يجب ان تخلي مكانها لحضارة الجماهير الشعبية ، القائمة على الانسانية وعلى الاهتمام بأناس العمل ، ومع هذا فإن أصحاب المذهب الشخصاني يبذلون كل ما بوسعهم لتعمية وعي الجماهير عن طريق فلسفتهم المثالية وسفسطتهم الكلامية. إن هذه الثقافة الجديدة هذه الديمقراطية الجديدة لا تروق لهم كثيراً لأن تقدم الجماهير يعني نهاية كل « نخبة » قائمة فوق الجماهير ، نهاية أرستقراطيه الدم ، والمال ، ومحتكري المعرفة... الخ. فكيف يقدر لأصحاب المذهب الشخصاني ، أن يدافعوا عن « تقدم الجماهير » في حين أن مفهوم « الجماهير » يعني ، بالنسبة إليهم ، شيئاً ذرياً.* ، وفي الوقت ذاته ، شيئاً قطيعياً**. ويؤكد أنصار المذهب الشخصاني أن الجماهير الشعبية تتكون من أناس لا شخصيات لهم ، من أفراد ذوي شخصيات مسحوقة ، مبتلعة ، ضائعة في الجماهير ، وما تقدم الجماهير غير استبدال تجربة الشخص بتجربة غفل. ويؤكد أنصار المذهب الشخصاني بكل صفاقة ، أن كون الانسان شخصاً إنما يعني الوقوف ضد الرأي العام والضغط الاجتماعي... إنهم لا يريدون أخذ

* نسبة الى مذهب الذرة.

** نسبة الى القطيع، الحيوانات.

الواقع بعين الاعتبار، لا يريدون الاقرار بأن الشخصية الانسانية لا يمكنها، أن تتطور أشمل تطور الا وسط الجماعة، وسط جماهير الشغيلة.

ان المدافعين عن المذهب الفردي البرجوازي الذي يسحق مصالح الجماعات، مصالح الجماهير الشعبية، ان هؤلاء «يكافحون» ضد الجماهير. ان مفهوم «الجماهير» يوصف عندهم بأنه «أسوأ تشويه للتاريخ»، وانه «نتيجة بشعة للدعاية». وهم يذهبون الى ان كل وعي فردي انما يتحطم في الجماعة، في الجماهير الشعبية. والجماهير، في رأيهم، لا وعي لها. ولكن في حين «يناضل» أصحاب المذهب الشخصاني ضد مفهوم «الجماهير» المجرد الميتافيزيقي، الناشيء بفعل الدعاية البرجوازية ذاتها، فانهم يستخدمون هنا هذا المفهوم الكاذب، وهم يعنون به، ما هو مناقض لـ «النخبة»، للشخصيات المصطفاة. هكذا يعمد اصحاب المذهب الشخصاني من جديد، الى نشر، أفكار نيتشه، وشبينغلر، وبرغسون وغيرهم من الرجعيين. انهم يؤكدون بأن الانسانية عاشت «بالنخبة ومن اجل النخبة» وان الانسانية لم تتمكن من تطوير وعي غير وعي «فئة قليلة جداً من أبنائها». هكذا يشوه تاريخ الانسانية في صالح البرجوازية الرجعية.

بيد ان أصحاب المذهب الشخصاني مجبرون أيضاً على الاعتراف بان العصر، الآن، هو عصر الجماهير عصر الديمقراطية (السياسية والاجتماعية) وبان التاريخ اصبح قضية الجميع ما دام «الجميع يستطيعون التفكير في شؤونهم». ان تطوير الاقتصاد، وممارسة السياسة، والحرب والسلام، وبكلمة موجزة ان التاريخ كله مرتبط اليوم، «بتطور الجماهير».

بيد ان انصار المذهب الشخصاني يفهمون التطور الاجتماعي على طريقتهم، اي بشكل مثالي. ويبدو انهم لا يرون هذا التطور إلا في تطور الوعي. كما أنهم ينظرون الى الثورة نظرة مماثلة. «فالثورة الحقيقية، كما جاء في مقال مجلة «الفكر» تكمن، بالنسبة الى جماهير الناس، في الانتقال من اللاوعي النسبي الى الوعي الواسع».

ولكن جماهير الشغيلة لا تفكر اطلاقاً، رغم تفكير اصحاب المذهب

الشخصي وغيرهم من المثاليين، بحصر مهمات التطور الاجتماعي والثورة في تطور الوعي. إن الجمل المثالية المتعلقة بتطور الذات والوعود المختلفة بالثروات المقبلة لا يمكنها ان تسد حاجات الشعب المادية والروحية. ان الجماهير تناضل في سبيل تحقيق انعطاف، اقتصادي واجتماعي سياسي، في سبيل القضاء على اي اضطهاد واستثمار من قبل انسان لأخيه الانسان. وضد أي نوع من عدم المساواة الاجتماعية. ويجعل رجلٌ كـ «غالستون سيسلي» من نفسه داعية للنظريات الفاشية المتعلقة بالجماهير والشخصيات، في مقال عنوانه «روح الجمهور» في مجلة «سنتينر» (بروكسل عدد ١٩٥٣/٨٦). يقول غالستون: «كانت الشعوب، حتى بداية القرن العشرين، تربط مصائرها بالشخصيات التي يُعترف، لها «بعبقريتها الفذة في فن القيادة». وهذه الشخصيات تسمح لنفسها بتجاهل «الجمهور». غير ان الزعماء مضطرون، الآن، الى تنفيذ ارادة الجماهير. وليس هنالك الآن أي سياسي يود «الاحتفاظ بمركزه» يسمح لنفسه بالمخاطرة بشعبيته. انه مضطر لفعل ما يحلو للشعب. ولا يتفوق الا من يتجاوب واهواء الجمهور. لقد اخذ الجمهور ينعم بخيراته، وغدا صوته يجلجل عالياً، ويرتفع اعلى فأعلى.. «ان الروح الجماعية غدت سيدنا الجديد». الآن اصبح «الشعب، اي الجمهور» الوارث الطبيعي للحق الالهي، والويل لمن يعارضه. ويلاحظ غالستون، والاسف يحز في نفسه، انه لم يبق شيء من ملكيات القرن التاسع عشر وحقه الالهي، و«ارستقراطيته الفكرية». إن العامل الأساسي لهذا «التطور الخفي» هو تحطيم ذلك «اللجام الذي كان يلجم الجمهور في خوف واضح من الشعب الآن» يقول غالستون: «إننا نشهد غزواً بربرياً جديداً، ولكن هؤلاء البرابرة يأتوننا من الداخل لا من الخارج».

هكذا يهذي ايديولوجيو البرجوازية الامبريالية، الذين يحلمون بديكتاتورية ارهابية فاشستية، لكنهم يجدون أنفسهم مجبرين، على الاعتراف وهم يصرصون بأسنانهم، بأن مصائر المجتمع لم تعد مرتبطة بهم. ولهذا فهم في حقدهم العاجز يفترون على جماهير الشغيلة مسمين اياها

بالجمهور الأخرق. انهم يؤكدون ان الجمهور سريع التهيج، اندفاعي جاهل نسّاء، وعاجز عن التفكير المنطقي، ينتقل من الخوف الى الكره، ومن الكره الى العبادة، ان جميع تصرفاته متناقضة، محرومة من الفكر العملي، أو تبدو تهريجاً أخرق. قد يقع في الخطأ حتى الانسان الحصيف أحياناً، لكن الجماهير تسيرها الأهواء والدوافع الجنونية، فهي دائمة الخطأ، ولا يمكن أن تؤتمن على حل القضايا المعقدة التي تعترض العالم الحديث. هكذا يصور ايديولوجيو البرجوازية عبدة كيس المال الجماهير الشعبية.

ويتهجم غالستون بعنف، خاصة ضد نضال الجماهير في سبيل السلم. يقول غالستون: «ان عبادة الجمهور المحب للسلم، هي احد أشد الاختراعات التي عرفت، في أي وقت» إقرار غالستون وهو يلجأ الى أحط الافتراءات على الجماهير اذ يقول ان «القطيع هو، دائماً، ذو نزعة عدوانية» ويؤكد أن الجماهير، بالذات، طالبت بالحرب دائماً، أما في حين أن الميونيخيين، تشمبرلن وصحبه فيزعمون أنهم «المدافعون عن السلام». ولكن من ذا الذي لا يفهم ان تشمبرلن وغيره من المساهمين في معاهدة ميونيخ عام ١٩٣٨ مع هتلر كانوا «ينشدون» السلام مع العدوان الهتلري الذي ابتلع تشيكوسلوفاكيا وكان يستعد لاستعباد بلدان اخرى في اوروبا، وان شعوب اوروبا كانت تطلب لجم العدو الفاشي عن طريق تنظيم الأمن الجماعي.

ان غالستون لا تروق له الحكمة الشعبية القديمة القائلة: «ان صوت الشعب من صوت الله». فيصرخ غالستون غاضباً: «وهل هناك شيء أعظم كذباً من ذلك!».

يبدو ان السادة اضراب غالستون لا يكتبون هذا من أجل الجماهير. ان هدفهم تثقيف السفاكين الفاشيين وزعمائهم الكبار والصغار. ان غالستون، بشكل خاص، يحذرهم من انه لم يعد بالامكان الآن تجاهل «روح الجماهير»، والنظر اليهم كمجرد «لحم للمدافع». ولكي يسحق الشعب لا بد من معرفته. ويتفلسف غالستون ذاهباً الى انه لا بد للزعماء

الحكوميين في العصر الحاضر من « معرفة اولية بنفسية الجمهور ».
وفي سبيل السيطرة على الجماهير واضطهادها تلجأ البرجوازية، دائماً، الى وسيلتين أساسيتين: الى الاكراه والخداع، الى الضغط المباشر والافساد الروحي. ومن اجل الوصول الى افساد وعي الجماهير النفسي تعمد البرجوازية، خاصة الى النشر الواسع للمعتقدات الدينية، كما تعمد الى نشر ايديولوجية القومية البرجوازية والشوفينية.
ان السمو بوعي الجماهير، ونشر الافكار الماركسية اللينينية والاممية البروليتارية في صفوفها، تثيران القلق لدى ايديولوجيي البرجوازية. انهم يركزون اهتمامهم على وضع التدابير الآيلة الى تقوية التأثير البرجوازي على الشغيلة. ومن هذه التدابير الدعاية للروح القومية البرجوازية وهذا ما يفسر ظهور العديد من الكتب والمقالات المكرسة للدعاية للقومية البرجوازية، وتاريخها و « مصائرها » في البلدان الاجنبية.
وقد كشف عن الاهداف الطبقية « لمؤلفات » القومية البرجوازية، كشفاً صريحاً إلى حد بعيد. الفاشستي القومي البرجوازي عضو فرقة الليجون الرومانية السابق، غورياسيا، في كتابه المسمى « مصائر القومية » (باريس ١٩٥١). إن عدو الشغيلة هذا يعبر عن قلقه بخصوص مفهوم الجماهير « الكوسموبوليتي » المجرد، عاجز عن الحد من الشعور الوطني لدى جماهير الشغيلة. لهذا فهو يقترح الاستعاضة عن مفهوم الجماهير بمفهوم القومية (الامة). فليست الجماهير المجردة هي التي تصنع التاريخ، بل القوميات (الامم). « ان التاريخ، هو مسرح صراع القوميات (الامم) وآلامها واهوائها، هذه القوميات المنتصبة الواحدة ضد الاخرى ».
إنَّ طريقة المدافعين عن سيطرة البرجوازية معروفة منذ القديم: وهي طمس التناقضات الطبقية داخل الامم (القوميات) البرجوازية، وانكار الاهمية التقدمية العظمى لنضال الشغيلة، الطبقي، الثوري ضد المستثمرين، والإستعاضة عن صراع الطبقات الحقيقي، بصراع الأمم والعروق المتخيل، وجعل « الصراع العرقي » « قانوناً سرمدياً » للتاريخ. ولكن هدف هذه الطريقة التي يلجأ إليها الايديولوجيون والساسة

البرجوازيون، تسميم الجماهير الشعبية بالقومية البرجوازية كي يسهل عليهم انتهاج السياسة البرجوازية في اضطهاد القوميات (الأمم)، يقول غوريا سيا: «إن القومية لا تندفع مع تيار الجماهير، بل تفرض عليه انضباطاً روحياً معيناً».

وحين يهتم القوميون البرجوازيون، بمصالح المستثمرين الذين يرتعدون من الجماهير الشعبية، يبذلون كل ما في وسعهم لاخضاع الجماهير لارادة الزعماء البرجوازيين. يقول غوريا سيا: «ان الجماهير تؤلف «خطراً» بمقدار ما تعوزها النخبة». ورسالة هذه «النخبة» ان تجعل الجماهير، من جديد نافعة للقومية (للامة)». (أي للبرجوازية). اما «النخبة» القديمة فغير صالحة لهذه المهمة ولا بد من «نخبة» جديدة تكون مطالبة بتنظيم طاقة الجماهير، المبعثرة، اي رص صفوفها تحت علم القومية البرجوازية.

وتعتبر ايديولوجية الروح القومية البرجوازية وسياستها، وإذكاء الاحقاد العرقية والقومية البرجوازية بين الشعوب، احدى الطرق الأساسية التي تنتهجها البرجوازية الامبريالية.

ان البرجوازية الاميركية التي تستخدم الدعاية الكوسموبوليتية كاحدى الوسائل الايديولوجية الاساسية في الصراع من اجل السيطرة العالمية، هذه البرجوازية تستخدم أيضاً ايديولوجية القومية البرجوازية والعرقية، في سياستها الداخلية والخارجية. والكوسموبولوتيون الاميركيون ليسوا، في الغالب الأعم، غير عرقيين يؤكدون ان الاميركيين هم العرق الاسمى المدعو الى قيادة العالم. وتدعو البرجوازية الاميركية والانجليزية الى الفكرة العرقية الزاعمة بان الانكلو ساكسون ليسوا غير «العرق الاسمي» غير القومية (الامة) «الاسمى» «الكلية»، أما الشعوب الاخرى فليست اكثر من عروق وقوميات (امم) «منحطة»، عاجزة بذاتها عن دفع الحضارة الى الأمام فلا بد للعرق، القومية «الاسمى» من آن «يدمج» في ذاته القوميات (الامم) الاخرى، ولغاتها وثقافاتها اي ان يبتلعها هي وسيادتها.

ويعمد بعض ايديولوجيي الاشتراكيين اليمينيين الى نشر هذه

النظريات الرجعية، نظريات «الابطال والجمهور» تحت ستار جمل عن الاشتراكية والمساواة والديمقراطية.

لقد وصف الزعيم الاشتراكي الفرنسي اليميني، السابق ليون بلوم (١٨٧٢ - ١٩٥٠) سلطة الشعب كـ «نظام عاجز» لأنه يساوي بين صوت العامل البسيط، (أو كما يقول بلوم بلهجته الاحتقارية، العامل الجامع للخرق) وبين صوت العالم العبقري. وطالب بنبذ المبدأ الديمقراطي، مبدأ المساواة السياسية لأنـه يناقض مبدأ «عدم المساواة الطبيعي». ويرفض بلوم ديمقراطية الاغلبية باعتبارها «ديمقراطية عددية» يرفضها باسم ديمقراطية الاقلية المستثمِرة، باعتبارها «ديمقراطية نوعية» واصفاً هذه الاخيرة بـ «الديمقراطية الاجتماعية».

ان «ديمقراطية» ليون بلوم «الاجتماعية» ليست غير ديمقراطية برجوازية مغطاة بكلمات عن الاشتراكية. ويحافظ هذا «الاشتراكي» في «ديمقراطيته الاجتماعية» على سلطة الرأسماليين وارباحهم، وعلى بؤس العمال وانعدام حقوقهم واضطهادهم تحت شعار «عدم المساواة الطبيعية»، ولكنه يحاول، بمساعدة السفسطة تصوير كل ذلك كمساواة اجتماعية. ان على العمال ان يسيروا الى «الاشتراكية» ولكن من غير ثورة، من غير توطيد ديكتاتورية البروليتاريا، من غير قلب سلطة البرجوازية، وعن طريق «الكمال الخلقي الذاتي» والتعاون مع الرأسماليين. هكذا يدافع بلوم وأحزابه من أيديولوجيي الاشتراكيين اليمينيين، عن سيطرة الرأسمال.

وهناك بعض الزعماء الليبراليين يبشرون بنظرية «الابطال والجمهور» الرجعية بشكل اكثر صراحة. فماكدونالد، زعيم الليبراليين الانكليز، السابق (١٨٦٦ - ١٩٣٧) أصدر، في السنوات الاولى من عمر الثورة الاشتراكية العظمى، عندما كانت جماهير العمال الانكليز، منتشية من الفرح بأخبار انتصار الثورة العمالية الفلاحية في روسيا، أصدر كتاباً عنوانه «البرلمان والثورة» يقلل فيه من شأن دور الجماهير الشعبية في حياة المجتمع السياسية، بل وينكر عليها هذا الدور. فهو يؤكد ان الديمقراطية تفترض «سلبية الجمهور ذي الافكار المضطربة، والمحروم من

توجيه سياسي محدد، كما تفترض ايضاً نشاط بعض الجماعات، العالمية بما تصبو اليه». وهو يصور سلبية الجماهير السياسية، في ظروف الرأسمالية، كخاصة طبيعية خالدة، متجاهلاً ان هذه الخاصة انما هي محدودة بالنظام البرجوازي الذي يُقصي الجماهير عن المساهمة في الحياة السياسية. ويتخرص ماكدونالد مباشرة على الجماهير، حين يعلن ان «نفسية الجماهير، الآن ومنذ القديم، ما تزال تمثل النفسية البدائية التي عرفها نظام المشاعية البدائية». وقد قال لينين بصدد أفكار ماكدونالد هذه. «إن البرجوازي الصغير يرمي على الجماهير، عموماً، ما أنتجته الرأسمالية»[٢٧].

إن النظام الرأسمالي يسحق بكل الوسائل، نشاط الجماهير ويضطهدها، ويبقيها أسيرة البؤس، ويحرمها من التعليم ومن نعم الحضارة، الأولية، في حين يؤكد حماة الرأسمالية أن الجماهير الشغيلة هي ذاتها المسؤولة في هذا الخصوص، وإن هذه هي «نفسيتها». وحين تنهض الجماهير، في مراحل الثورة، الى النضال الواعي، الفعال، ضد النظام الذي يضطهدها، يصرخ حينذاك اجراء البرجوازية، بأن «الفوضى» و«سيطرة أهواء الجماهير، العمياء» و«التشوش» اخذت تعم.

ونجد أيضاً بين ايديولوجي وزعماء الاشتراكيين اليمينيين والليبراليين أناساً ينتصبون ضد المبادرة الثورية التي تقوم بها الجماهير الشعبية، ويحاولون فهم وحدة الجماهير وتحطيمها سياسياً، وإقصاءها عن النضال في سبيل مصالحها الطبقية، في سبيل الديمقراطية الصحيحة. ويحاول هؤلاء الزعماء المرددون لتخرصات الدعاية البرجوازية، تصوير الدولة السوفياتية، والنظام الديمقراطي الشعبي السوفياتي، على انه عنف فاضح وخارقٍ للديمقراطية، وبالاضافة الى ذلك فهم يؤكدون ان الدولة البرجوازية في انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة ليست دولة ديكتاتورية البرجوازية بل دولة سلطة العمال والمستخدمين الذين يقودون، حسب

(٢٧) المجموعة اللينينية، المجلد الرابع والعشرون ص ٢٥٧.

زعمهم، الاقتصاد والدولة، وان البرجوازية لم تعد الطبقة السائدة اقتصادياً وسياسياً.

ان اعتى ايديولوجي وخدم البرجوازية رجعية يتحرقون لوعة بخصوص القضاء على الطبقات المستثمِرة في الاتحاد السوفياتي، مؤكدين بان الجماهير الشعبية تتحول، عند غياب هذه «الجماعات الاجتماعية المنتظمة» التي تحتل مركز الصدارة في المجتمع، تتحوّل الى «جماعات شاذة» إلى جمهور يتحرك بوحي الاهواء العمياء لا بفعل العقل. ونتيجة هذا واضحة: لا بد من لجم الجماهير، ومن إعادة «تلك الجماعات الاجتماعية المنظمة» التي أطيح بها، لا بد من إعادة اولئك المستثمِرين، الى التحكم برقاب الجماهير، فالشعب لا يستطيع ادارة المجتمع والدولة من غير المستثمِرين ومأجوريهم.

بيد ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي. ونشوء معسكر الاشتراكية والديمقراطية العالمي، بزعامة الاتحاد السوفياتي ونهوض حركة التحرر الوطني الجبار ونجاحات حركة التحرر الوطني في المستعمرات كل هذا حطم وبدد جميع تلك النظريات والمخططات البرجوازية الهادفة الى «لجم» الجماهير الشعبية.

القوانين الموضوعية لتطور المجتمع ودور الجماهير الشعبية في التاريخ

كان نقاد الماركسية البرجوازيون وعلماء الاجتماع المثاليون يؤكدون، وما زالوا يؤكدون ان الماركسية حين تعترف بالقانونية الموضوعية، بالضرورة في تطور المجتمع، انما تحول الناس الى دمى الضرورة الاقتصادية، وتنكر امكانية نشاط الناس الواعي الحر، هكذا كان الايديولوجيون الشعبيون» يجعلون من الجبرية والحتمية، في العلم الاجتماعي، شيئاً واحداً ويتهمون الماركسية بالجبرية.

لقد أشار لينين الى أن هذا التأكيد غير صحيح ، وهو بمثابة تخرُّص على الماركسية. فالاعتراف بالمذهب الحتمي ، أي بسببية الظواهر ، لا يفترض عدم الأخذ بالجبرية فحسب ، بل في الوقت ذاته يخلق الأساس لنشاط الناس الفعال ، الواعي المعقول(٢٨).

ان المثاليين يعزون للماركسية نظرة سخيفة، ينشأ التاريخ حسبها من دون الناس، من دون قواهم الواعية. بيد ان الماركسية غريبة عن مثل هذه النظريات السخيفة، نظريات فعل قوانين التاريخ بشكل آلي بعيداً عن نشاط الناس. ان التاريخ يصنعه الناس. ولكنهم لا يصنعونه على هواهم، بل على أساس الشروط الموضوعية التي تحدد وعيهم وإرادتهم. فالناس يتبعون اهدافاً معينة، ويناضلون في سبيل مصالح محددة تفرضها الشروط الموضوعية لحياتهم، ومعيشتهم اليومية الاجتماعية، ووضعهم الاقتصادي، وقبل كل شيء، علاقتهم بوسائل الانتاج. ان لدى الرأسماليين اهدافاً واحدة، مصالح وتطلعات واحدة، ولدى البروليتاريين نقيضها نتيجة وضعهم الاجتماعي المتناقض في المجتمع الرأسمالي.

يقول لينين، في صدد ملاحظة ميخائيلوفسكي، الذاهبة الى أننا اذا اعتبرنا نشوء الرأسمالية أمراً قانونياً، حتمياً، وعفوياً، فهذا يعني اننا نعترف عندئذ بأن احساسات الناس ، وتفكيرهم غير موجودين . يقول : « ما هذا الهراء الزاعم ، أن الفكر والإحساس لم يكونا موجودين عند نشوء الرأسمالية؟ فيم تقوم الرأسمالية إذا لم تكن تقوم على علاقات معينة بين الناس ، ونحن نعرف حتى الآن أناساً لا فكر لهم ولا إحساس ، وما هذا البهتان القائل بأن تأثير الفكر والاحساس عند تلك « الشخصيات الحية » في سير الأمور كان « شيئاً تافهاً »؟ إن الأمر على عكس ذلك تماماً. لقد أقام الناس ، وهم بكامل عقلَهم ووعيهم ، سدوداً وقناطر بارعة جداً تقحم الفلاح المتمرد في مجرى الاستغلال الرأسمالي ، وأنشأوا قنوات تحويل ماكرة

(٢٨) انظر لينين: ـ المجموعة، الجزء الاول ص ٤٠٠.

جداً من مؤسسات سياسية ومالية يندفع فيها التراكم الرأسمالي ونزع الملكية الرأسمالية اللذان لم يقنعا بعمل القوانين الاقتصادية وحدها »[٢٩].

ثم ان فعل القوانين الاقتصادية الموضوعية « العمياء » وحتى العاملة بشكل عفوي، لا ينفي اطلاقاً، نشاط الناس الواعي الفعال، بل يفترضه، كما لا ينبغي، اطلاقاً، النضال الطبقي الذي ينشأ عن التطور الاقتصادي للمجتمع.

لقد أثبتت الماركسية ان الاعتراف، ذاته، بالقانونيات الموضوعية في تطور المجتمع، وبحتمية الظواهر الاجتماعية، يقدم أساساً وطيداً لنشاط الناس، الحر، الخلاق، عملياً. في حين ان المثاليين، اذ يردون أسباب جميع الظواهر الاجتماعية الى « إرادة الناس الحرة » انما يبقون على سطح الظواهر الاجتماعية، ويجعلون من ظاهر هذه الظواهر جوهرها. إن الاعتراف بقوانين تطور الظواهر الاجتماعية، ووعي هذه القوانين. هما، وحدهما، اللذان يتيحان استباق سير الاحداث، والتحرك بكل بصيرة لا خبط عشواء، (أي مع المام بالقضية) وبلوغ الاهداف، وتحقيق النتائج المرجوة. إن قولنا بأنَّ الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم، هو حقيقة اساسية. ولكن هذه الحقيقة تصبح جملة خالية من المحتوى اذا لم تدرس القانونية الموضوعية لفعل الناس، وقبل كل شيء، فعل جماهير الناس، فعل الطبقات.

ان الخلاف بين المادية التاريخية وبين الفهم المثالي للتاريخ يكمن، بالذات، في التالي: هل هناك قانونية موضوعية في نشاط الناس الاجتماعي، او ان نشاط الناس غير مشروط بشيء، ولا يخضع للسببية،والحتمية؟ فاذا كانت أفعال الناس والطبقات مشروطة تاريخياً، وهو الأمر الذي أثبتته الماركسية بشكل لا يدحض، فان هذه الافعال المتحركة، ومسيرة الاحداث التاريخية، يمكن توقعهما علمياً. وعلى أساس القانونية، فقط، يصبح نشاط الجماهير الشعبية، والطبقات، والاحزاب، والشخصيات الهادفة، الجدية،

(٢٩) انظر لينين المجموعة، الجزء الاول، ص ٣٧٨.

ممكناً. وعلى العكس من ذلك، إذا كان تحرك الناس، والطبقات، في المجتمع غير مشروط بشيء، وبلا سبب، وكان عبارة عن مظاهر الارادة الحرة، فقط، غير المتعلقة بالعالم الخارجي، كما يؤكد المثاليون، وأصحاب مذهب الارادة منهم بشكل خاص، حينذاك لا يمكن التنبؤ بشيء في مجال تطور المجتمع ويصبح التاريخ عبارة عن سيطرة الفوضى والاعتباطية. حينذاك يتعذر على أي كان العمل بشكل موجه هادف حرّ، وناجح؛ ويصبح الجميع وكأنهم عبيد الصدفة العمياء، ويكون عليهم ان يعملوا وفق الصدف. فليست المادية التاريخية، بل نظرية المثاليين الذاتيين والاراديين بالضبط هي التي تؤدي منطقياً الى اللامعقول، الى نفي العلم، والى الجبرية.

الا ان الحجة الرئيسية والحاسمة، التي تدحض جميع نظريات المثالية، هي الممارسة الاجتماعية نفسها، هي الواقع التاريخي. فهما يؤكدان تماماً موضوعية المادية التاريخية عن قانونية تطور المجتمع، وصحة نظرية الماركسية عن كون وعي الناس وارادتهم يتجددان بفعل وجودهم الاجتماعي. عندما حدد ماركس وانجلس المهمة التاريخية للطبقة العاملة، لم يستندا الى «ارادتها الحرة» بل أوضحا الضرورة التاريخية لنضال البروليتاريا الطبقي، من أجل الاشتراكية. «فالقضية ليست في أي شيء يرى هدفه في فترة معينة، بل بهذا البروليتاري او ذاك، او حتى بالبروليتاريا كلها. القضية هي فيما هو البروليتاري في الواقع، وفيما هو مجبرٌ تاريخياً على أن يفعل انسجاماً مع وجوده هذا. إن هدفه، وقضيته التاريخية سيتوضحان له بشكل بيِّن لا يدحض استناداً الى وضعه الحياتي الخاص، وكذلك الى تنظيم المجتمع البرجوازي المعاصر كله[30].

فأهداف البروليتاريين وتطلعاتهم مثلها مثل اهداف وتطلعات الطبقات الأخرى، تتحدد بظروف حياتهم الاجتماعية ووضعهم الاقتصادي وعلاقاتهم بوسائل الانتاج في نهاية المطاف.

(٣٠) ماركس، انجلس، المؤلفات، الإصدار الثاني، الجزء ٢، ص ٤٠.

اما كون التاريخ يتحرك عبر الصراع بين مختلف الطبقات، فقد لاحظه بعض المؤرخين والمفكرين الذي عاشوا قبل ماركس. أما فضل الماركسية ففي اكتشافها القانونيةَ الموضوعيةَ لنشوء الطبقات وتطور الصراع الطبقي.

لقد قدمت الماركسية التفسير العلمي، المادي، لنشوء الطبقات، للصراع الطبقي وللدولة. وبرهنت على ان الطبقات، والصراع الطبقي والدولة أمور نشأت في مرحلة معينة من تطور المجتمع وانها تختفي في المرحلة العليا من تطور الانتاج الاجتماعي، في المجتمع الشيوعي.

وتستنتج الماركسية حتمية تحول المجتمع الرأسمالي، ثورياً، الى مجتمع اشتراكي، لا استناداً الى رغبات الافراد، الطيبة، بل الى القوانين الاقتصادية لتطور الرأسمالية. وهذا يعني ان الماركسية انما اكتشفت القانونية الموضوعية لنشاط جماهير الشغيلة، التي تخلق التاريخ.

لقد برهنت الماركسية على ان النضال الطبقي ينتهي بالضرورة، الى ديكتاتورية البروليتاريا اي الى قيام سلطة للطبقة العاملة. ان ديكتاتورية الطبقة العاملة هي السلاح الرئيسي للقضاء على الطبقات وهي تمثل الضرورة التاريخية في ظروف الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية، أي من المجتمع الطبقي الى المجتمع اللاطبقي.

وقد كتب لينين مبرزاً فضل ماركس:

«الناس، هم الذين، يخلقون تاريخهم، ولكن بمَ تتحدد دوافع الناس، ودوافع جماهير الناس على وجه التحديد، وما الذي يستدعي صدام التطلعات والافكار المتناقضة، ما هي مجموعة كل هذه الصدمات التي تجري بين كل هذه المجتمعات الانسانية، ما هي الظروف الموضوعية لانتاج الحياة المادية التي توجد قاعدة نشاط الناس التاريخي كله، ما هو قانون تطور هذه الظروف؟ لقد وجه ماركس الإنتباه الى كل هذه الأمور وبيِّن طريقة دراسة التاريخ، دراسة علمية، باعتباره، عملية وحيدة، قانونية في كل

تنوعها العظيم وتناقضها »[٣١].

ان حرية الانسان، لا تعني استقلاله عن ظروف الطبيعة والمجتمع وقوانينهما. الحرية هي الضرورة الواعية ،والنشاط القائم على معرفة هذه الضرورة. وكلما ادرك الناس هذه الضرورة والعلاقة القانونية للظواهر، بشكل احسن وأتم، كانت أفعالهم في مجال استخدام قوى وقوانين الطبيعة والمجتمع لصالح المجتمع، اكثر نجاحاً.

يزداد ادراك الناس لقوانين التطور الاجتماعي عمقاً، أثناء عملية الممارسة الاجتماعية نفسها. وهذا هو سبب نمو تأثير نشاط الناس الواعي على سير تاريخ المجتمع. وقد برهن التاريخ على زيادة وعي وجودة تنظيم الجماهير الشعبية في نضالها من اجل تحررها من الاضطهاد والاستثمار وعلى نمو نشاطها وتزايد أهمية وعيها وجودة تنظيمها في تطور المجتمع. هذا، وينمو بشكل خاص، دور نشاط الجماهير الشعبية الواعي في ظروف الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وفي ظروف الاشتراكية، عندما يتبدل، بشكل جذري، وضع جماهير الشغيلة في المجتمع، وتتحقق نبوءة انجلس حول القفزة التاريخية من سيطره الضرورة العمياء الى سيطرة الحرية. ونتيجة توطيد العلاقات الانتاجية الاشتراكية، والملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج، يخضع مفعول قوانين المجتمع، الموضوعية، للمراقبة الواعية والممنهجة لجماهير الشغيلة المتحررة من الاستثمار ومن أي اضطهاد اجتماعي آخر.

ان الحزب الشيوعي، الذي يسترشد بالتعاليم الماركسية اللينينية في مجال قوانين تطور المجتمع، يسلح الجماهير الشعبية بمعرفة هذه القوانين، ويرفع، بذلك، درجة وعي الجماهير الشعبية، وينظم ويوجه نضالها من اجل تحررها ويساعد على نمو مبادرتها الخلاقةونشاطها ،وهي كلها امور تجعل دور الجماهير الشعبية في مجالات الحياة الاجتماعية، كافة حاسماً وأكثر أهمية.

(٣١) لينين، المؤلفات، الجزء ٢١، ص ٤٠ - ٤١.

وعلى خلاف الجبرية، لا تعتقد الماركسية ان سير التاريخ محدد، مسبقاً من قبل كائن ما، وإنه يتم بشكل آلي، ومستقل عن نشاط الناس الواعي. في الواقع توجد امكانيات مختلفة ولكنها تستثني احداها الاخرى. وتنقلب هذه الامكانية او تلك الى واقع، لا من تلقاء نفسها، بل عن طريق جهد الناس وأعمالهم، عن طريق نضال مختلف الطبقات والاحزاب، والافراد الذين يسعون الى وعي واستخدام هذه الامكانيات لصالحهم، ولصالح الطبقة المعنية او المجتمع عموماً.

وتدل الماركسية، عندما تكشف الطابع العابر للرأسمالية، ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يتم عن طريق نضال الجماهير الشعبية، الطبقي الثوري ضد الرأسمالية. فأعمال الناس محددة تاريخياً، دائماً، بالظروف الموضوعية للتطور الاجتماعي. ولكن عندما تتوفر الظروف التاريخية الموضوعة لتنفيذ هذه المهمة او تلك، يصبح الطابع الذاتي، او نشاط الناس الواعي والمنظم، حاسماً. وطبيعي، ان يتحدد تطور العامل الذاتي بمجموعة الظروف الموضوعية، ولكن وعي الناس يتأخر، في تطوره، كما هو معروف، عن حياتهم الاجتماعية. لذلك غالباً ما يحدث ان تتوفر الظروف الموضوعية لحل هذه المهمة التاريخية او تلك، ولكن العامل الذاتي اي وعي، واقدام ودرجة تنظيم الجماهير والطبقات والاحزاب والافراد، لم يبلغ بعد تلك الدرجة الكافية لتنفيذ المهمات التاريخية المطروحة. فالتناسب التام والمطلق بين كل عناصر واطراف عمليات التطور، غير متوفر لا في الطبيعة ولا في المجتمع، بل توجد في كل مكان، تناقضات وعدم تناسب. وهي أمور تنشأ باستمرار، ويُتغلب عليها ثم تنشأ من جديد اثناء عملية التطور.

ان مسألة دور العامل الذاتي - الوعي ودرجة تنظيم الجماهير الشعبية، والطبقات والاحزاب - في تاريخ الماركسية - اللينينية تطرح وتحل وفق مبادىء الدياليكتيك المادي، اي بشكل ملموس، بالنسبة الى ظروف الزمان والمكان. وعندما ننظر الى اية ظاهرة اجتماعية - تاريخية، علينا ان نميز فيها الظروف الموضوعية، المستقلة عن وعي الناس، والناحية

الذاتية، علينا ان نفهم الشرطية الموضوعية لافعال الناس، الواعية، والفعل المعاكس للعامل الذاتي على الظروف الموضوعية.

لنأخذ، على سبيل المثال، صراع الطبقات كقوة محركة لتاريخ المجتمع الطبقي. هذا النضال قانوني، انه يوجد نتيجة الظروف والعلاقات الاقتصادية - الاجتماعية، المادية: وجود الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واستثمار قسم من المجتمع لقسمه الآخر. وينبغي ان نرى في هذا الصراع الناحية الموضوعية والذاتية.

عندما عمم لينين تجربة حركات الجماهير، الثورية، أشار الى أن **الظروف الموضوعية، أي الوضع الثوري، غير كافٍ لتحقيق انتصار الثورة: فلانتصار الثورة لا بد من تحولات ذاتية معينة، أيضاً، لا بد من تبدلات في وعي الجماهير، لا بد من اقدامهم على النضال الثوري.**

فالوضع الثوري يتسم، كما يشير لينين، بدلائل رئيسية ثلاثة: تعذر الطبقات السائدة، المحافظة على سيطرتها بشكلها السابق، وجود ازمة سياسية جدية في الوطن، تفاقم عوز الطبقات المضطهدة ومآسيها الى حد يفوق المعتاد، ازدياد نشاط الجماهير ازدياداً كبيراً نتيجة الاسباب المشار اليها اعلاه. « فبدون هذه التبدلات الموضوعية، المستقلة لا عن ارادة الفئات المختلفة والاحزاب فقط، بل عن مختلف الطبقات، تتعذر الثورة - حسب القاعدة العامة. ان مجموعة هذه التبدلات الموضوعية تدعي الوضع الثوري »[٣٢]. كانت الاوضاع الثورية قائمة في روسيا في اعوام ١٨٥٩ - ١٨٦١، وفي المانيا في الستينات من القرن التاسع عشر، وفي كثير من دول اوروبا في اعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ الا انها لم تؤد كلها الى الثورات، ان الثورات تنشأ فقط من ذلك الوضع الثوري حين يضاف الى الشروط الموضوعية المذكورة اعلاه، العامل الذاتي المناسب - « قدرة الطبقة الثورية على الاعمال الجماهيرية الثورية القوية لدرجة كافية لنسف (أو لضرب)

(٣٢) لينين، المؤلفات، الجزء ٢١، ص ١٩٠.

الحكومة القديمة التي لا « تسقط » أبداً حتى في عضور الازمات، اذا لم « تُسقط »[٣٣].

واشار لينين الى أنه من الخطأ التفكير بان الطبقات الثورية تملك دائماً القوة الكافية لتحقيق الانقلاب، حتى عندما يكون هذا الانقلاب قد نضج بفعل ظروف التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي، « يمكن ان ينضج الانقلاب، غير أن قوى مبدعي هذا الانقلاب الثوريين يمكن أن تظهر غير كافية لتحقيقه، حينها يفسد المجتمع، ويمكن لهذا الفساد أن يمتد عشرات السنين »[٣٤].

٤ ـ دور الجماهير الشعبية في تطور الانتاج المادي في التشكيلات الاجتماعية السابقة للاشتراكية.

لقد بينت المادية التاريخية ان اسلوب انتاج الخيرات المادية، هو القوة الاساسية والمحددة للتطور الاجتماعي كله، وان المجتمع الانساني لا يمكن ان يوجد بدون الانتاج المادي.

فالجماهير الكادحة، وعملها وتجربتها، ومهارتها، وقدرتها، أمور تشكل القوة الانتاجية الرئيسية، تشكل قوة الانتاج المادي الاساسية. فالناس بعملهم يحركون عملية الانتاج، كلها، ويحسنونها باستمرار، ويرفعون من جودة أدوات العمل، ويتبدلون انفسهم. الجماهير الشعبية، تطعم وتكسي، بعملها، فئات المجتمع جميعها، وعلى أساس العمل المادي يتطور العلم، والتكنيك، والفن، وثقافة الانسانية كلها.

في تطور المجتمع تلاحظ القانونية التالية: في البدء تتحسن ادوات العمل، ثم يتطور معها الانسان نفسه الذي يحسنها ويدفعها للحركة، ثم تنمو

(٣٣) لينين، المؤلفات، الجزء ٢١، ص ١٩٠.

(٣٤) لينين: المؤلفات، الجزء ٩ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

تجربته الانتاجية، ومستواه الثقافي ـ التكنيكي.

فعمل الانسان لا يدفع الى الامام تطور المجتمع فحسب، بل إنه اوجد الانسان نفسه، كما أشار انجلس، وانتشله من الحالة الحيوانية، ويؤكد انجلس، أنه بفضل العمل وحده، «ارتقت اليد الانسانية، الى هذا المستوى الرفيع من الكمال الذي استطاعت فيه، وبقوة تكاد تكون سحرية، ان توجد لوحة رافائيل وتمثال توروالدسين وموسيقى باغانيني»(٣٥). وكلما كان العمل اكثر تعقيداً. كانت الحاجة الى الجماعة أكبر. هكذا تطور الكلام والصفات. ففي عملية العمل لم تتحسن اعضاء الانسان الطبيعية ومقدرته فقط، اي يداه واعضاء الحواس، والدماغ، والكلام، والتفكير، بل تطورت أيضاً اعضاؤه الاصطناعية، اي ادوات العمل، كما تطورت التقنية والعلم. ففي عملية العمل دفع الناس قواهم الانتاجية خلال العصور وآلاف السنين الى المستوى المعاصر، وأوجدوا الثقافة المادية والروحية، من هنا يستنتج بشكل لا يدحض ان تاريخ المجتمع هو قبل كل شيء تاريخ العمل وجماهير الشغيلة.

ان مفكري البرجوازية عاجزون عن نفي واقع، ان الانتاج المادي تم دائماً ويتم الآن بواسطة الجماهير الشغيلة. ومع هذا فهم يحاولون التقليل من أهمية ودور هذا الواقع في تاريخ المجتمع. كما ويحاول رجال الاجتماع والمؤرخون ـ المثاليون، حتى الآن، «دحض» رأي المادية التاريخية فيما يتعلق بتحولات اسلوب الانتاج واعتبارها القوة المحددة للتطور الاجتماعي. ويؤكدون انطلاقاً من الفهم المثالي للتاريخ ان تطور المجتمع وتطور الانتاج نفسه انما يتحددان بتطور الافكار، وان التاريخ يدفع الى الامام لا الشغيلة، مبدعي الخيرات المادية، بل مبدعي الافكار، الانتلجنسيا، رجال العمل الذهني، العلماء، المهندسين، المخترعين، السياسيين، المشرعين، ورجال الدولة.

إلا أن سير التاريخ كله يدحض هذه الأوهام المثالية ويؤكد الماركسية.

(٣٥) انجلس، ديالكتيك الطبيعة، ١٩٥٥، ص ١٣٣.

فالمادية التاريخية لا تنفي ، أبداً ، دور الأفكار ، والعلم ، والتقنية ودور المخترعين ، والعلماء ورجال الدولة ، في تطوير المجتمع ، إلا أنها تؤكد على أنهم لا يشكلون القوة المحددة ، الحاسمة لهذا التطور .

أولا : ان ظهور رجال العمل الذهني أصبح ممكناً فقط في درجة معينة ورفيعة نسبياً من تطور الانتاج المادي ، عندما غدا عمل الناس منتجاً لدرجة ظهر فيها المنتوج الفائض الذي استطاع ان يتغرب عن منتجه ، وأن يستعمل في تطوير العلم والفن من قبل أناس متحررين من الانتاج المادي .

ثانياً ـ ان وجود رجال العمل الذهني ، نفسه ، يتعذر بدون الانتاج المادي ، بدون جماهير الشغيلة. ثالثاً ـ ان تطور العلم والفن والثقافة الروحية والحياة السياسية والدولة ، يتحدد في نهاية المطاف ـ كما سيبرهن على ذلك فيما بعد ـ بتطور الانتاج المادي أيضاً ، ويعود بالتالي الى الجماهير الشعبية. رابعاً ـ ان الفصل بين العمل الجسماني والعمل الذهني ليس أبدياً : فانتقال المجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية يعني تصفية المعارضة بين اناس العمل الجسماني واناس العمل الفكري. وفي الشيوعية سيقرن الشغيلة كلهم في نشاطهم العمل الجسماني والعمل الفكري ، مما يسرع الى حد كبير ، حركة المجتمع الى الأمام. ان تحسين التقنية يتم اثناء عملية الانتاج ومن قبل الشغيلة انفسهم قبل كل شيء . فأدوات الانتاج كلها : الادوات الحجرية ، القديمة ، والخشبية والحديدية ، والبرونزية ، وأدوات الحصول على النار ، والقوس النشاب ، والسهم ، والفراعة ، والمطرقة ، والمنشار ، والمشط ، والمنجل ، والمحراث البسيط ، والمحراث اليدوي ، وانوال النسيج ، وأنوال الغزل والطواحين (اليدوية والهوائية والمائية) وانتاج الفخار ، وتأهيل الحيوانات والزراعة والبستنة ، وصناعة النبيذ ، وحرفة الحديد ، والفلزات ، ووسائل المواصلات الاولى ، (العربات التي تجرها الحيوانات ، العربات ذات الدواليب ، الزوارق ، والمراكب الشراعية ، وغير ذلك) كلها ، ليست من اختراع اناس منعزلين ، بل هي نتاج عمل طويل قام به أناس على مدى اجيال عديدة ، أناس ، أوجدوا ، واخترعوا وحسنوا هذه الأدوات خلال

عملية العمل: ويؤدي تطور القوى المنتجة الى تبدل العلاقات الاجتماعية ونظام المجتمع، الاقتصادي الذي يتبدل بعده البنيان الفوقي كله. عندما طور الناس، تدريجياً، ادوات الانتاج في اعماق النظام المشاعي - البدائي، واخذوا بالانتقال الى الادوات المعدنية التي تخفف عليهم العمل بالقياس الى الادوات الحجرية، أدى ذلك الى انقلاب لا في تكنيك الانتاج وحسب، بل في أسلوب الانتاج نفسه وفي النظام الاقتصادي للمجتمع: فحلَّ اسلوب انتاج عهد الرق مكان النظام المشاعي-البدائي.

كان اسلوب انتاج عهد الرق، من الوجهة التاريخية، اكثر تقدمية من المشاعية البدائية، لقد أمن انتاجية اكبر وأوجد الظروف لتطور تالٍ في القوى المنتجة. فتمركز وسائل الانتاج وقوة العبيد، العاملة في أيدي اصحاب العبيد ودولتهم، مكن من تنفيذ مشاريع لم تكن المشاعية البدائية ولا المنتجون الاحرار الصغار قادرين عليها.

ان عمل جماهير العبيد الكثيرة، الاكراهي، كان أساس تطور الثقافة المادية والروحية خلال كثير من العصور وآلاف السنين من تاريخ المجتمع. عمل العبيد أقام مدن العالم القديم والاهرام المصرية واقنية الماء الرومانية، ومجموعات ري دول الشرق القديم، والمعابد، والقصور والحدائق البديعة، وهي كلها لطبقة مالكي العبيد. وعلى أساس عمل العبيد، اصبح ممكناً، لأول مرة في التاريخ، تحرير قسم من العمل الجسماني للعمل في مجال العلم والفن والسياسة وهكذا فإن تطور العلم والفن، كان نتيجة فصل العمل الجسماني عن العمل الذهني. إن هذا التطور تحقق، كله، استناداً الى اضطهاد واستثمار العبيد، استثماراً وحشياً، لا رحمة فيه. لا يمكن تصور تقدم ثقافة المجتمعات القائمة على التناقضات بمثابة قصيرة حسب ما، يحدث بالنسبة للإزدهار الذي يشمل طبقات المجتمع كلها. إن خيرات التقدم كانت من نصيب الطبقات السائدة، والمالكة، قبل كل شيء، في حين كان الشغيلة محرومين من الحقوق. وهكذا كان العبيد ملكاً لأصحاب العبيد، لا يملكون أية حقوق، بل أن العبد لم يكن يعتبر إنساناً: كان مالك العبيد

يستطيع بيع العبد ، كأي شيء يخصه ، وكان يستطيع حتى قتله دون أي عقاب .

كان العبيد، استناداً الى وضعهم الاجتماعي، عاجزين عن ان يكونوا بناة اسلوب الانتاج الجديد، الاكثر تقدمية، الا ان نضالهم الثوري ضد أصحاب العبيد عبد الطريق لنشوء الانتاج الاقطاعي ، الجديد . فلولا تطور القوى المنتجة في ظروف اسلوب انتاج عهد الرق ولولا عمل العبيد ونضالهم لما أمكن انتقال الانسانية الى اسلوب الانتاج الاعلى، الى الاقطاعية.

ان التطور التالي الذي شمل الزراعة، وصناعة النبيذ، والبستنة وتربية المواشي والحرف تطلب بالحاح قيام هذا الاسلوب من الانتاج، الذي يوجد عند الشغيل ولو بعض المصلحة في زيادة انتاجية العمل. فالمستثمرون انفسهم، الذين كانوا يركزون العبيد في ايديهم، وكذلك الارض ووسائل الانتاج الاخرى، اقتنعوا شيئاً فشيئاً، بأن العبيد ليسوا مهتمين بزيادة انتاجية عملهم، ففضلوا التعامل مع الفلاحين - الاتباع على الطريقة الاقطاعية، والذين يملكون استثماراتهم الخاصة وكذلك ادوات الانتاج ، والذين لديهم بعض المصلحة في عملهم. وهكذا ظهر مكان استثمار عمل العبيد استثمار عمل الفلاحين استثماراً اقطاعياً ، هؤلاء الفلاحين الذين اصبحوا شيئاً فشيئاً ، أكثر عبودية لاصحاب الاراضي ، الاقطاعيين. والاستثمار هنا لا يقل قساوة عما كان عليه في اسلوب انتاج عهد الرق ، الا ان اسلوب الانتاج ، الاقطاعي ، اكثر تقدمية من ذاك لانه يوجد لدى المنتج بعض المصلحة في عمله ويفتح آفاقاً أكبر أمام تطور القوى المنتجة والمنتج ذاته.

ان عمل الفلاحين - الاتباع والحرفيين كان أساس وجود وتطور وثقافة المجتمع الاقطاعي كله . عملهم هو الذي شيد القصور ، وقصور النبلاء والمعابد العظيمة، والكنائس القوطية. ان عمل الفلاحين الاقنان والحرفيين هو الذي اوجد مدن القرون الوسطى، وثروات التجار ، والمانيفاكتورات التي نشأت في داخل النظام الاقطاعي .

وخلال عملية التطور انتقل النظام الاقطاعي، الذي كان يقيد

المنتجين، الى التناقض، الى النزاع مع القوى المنتجة التي نمت داخله، واصبح يلجم تطور المجتمع. فتحطم هذا النظام ونسف نتيجة انتفاضات الفلاحين - الاقنان والثورات البرجوازية. وأدت هذه الثورات الى تبديل الاقطاعية باسلوب الانتاج الرأسمالي، القائم على استثمار العمال المأجورين. وبدلاً من الورشات الحرفية والمانيفاكتورات قامت المصانع الكبيرة والمعامل المجهزة بالآلات.

ان أسلوب الانتاج الرأسمالي يتطلب ان يكون المنتجون اكثر ثقافة مما كان عليه الفلاحون - الاقنان، الأميون، المسحوقون، اذ عليهم ان يعرفوا كيف يتعاملون مع الآلة، مع التكنيك الجديد الرفيع. فاسلوب الانتاج الرأسمالي يخلق، لتطوير القوى المنتجة، دوافع أكثر عظمة وآفاقاً أوسع مما كان عليه الوضع في اساليب الانتاج السابقة. وقد برهن اسلوب الانتاج هذا ،أن أية قوى جبارة لم يكن لها مثيل قبل ذلك الحين، وكانت تكمن في عمل الجماهير الشعبية، المجهز بالتكنيك الآلي. لقد أشار ماركس وانجلس في «بيان الحزب الشيوعي» الى أن البرجوازية، بَنَتْ للعالم عجائب من نوع جديد، يتميز عن الأهرام المصرية والاقنية الرومانية والكنائس القوطية، وقامت بحملات هي غير حملات تهجير الشعوب والحملات الصليبية.

فخلال مئة عام من سيطرة البرجوازية اوجد المجتمع من القوى الجبارة العظيمة اكثر مما تم خلال العصور السابقة كلها: ظهرت السفن والخطوط الحديدية والكهرباء وطُبِّقَتْ الكيمياء في الصناعة والزراعة. وتم بأيدي الجماهير الشعبية - من عمال وفلاحين يرزحون تحت نير الاستثمار الرأسمالي - انشاء المدن الصناعية الضخمة وبنيت القنوات التي تصل الانهار. بعضها ببعض، وربط الكرة الارضية بالخطوط الحديدية، ونقل كميات السلع، الكبيرة بواسطة البواخر بين اطراف الكرة الارضية.

ان أسلوب الانتاج الرأسمالي اوجد المقدمات المادية للانتقال الى اسلوب الانتاج الاعلى بما لا يقاس، والاكثر تقدمية، الى اسلوب الانتاج الاشتراكي. لقد خلقت الرأسمالية من الطبقة التي ستعتبرها لتبني المجتمع

الشيوعي الجديد. في هذا يكمن تاريخياً دور البرجوازية الثوري التقدمي، باعتبارها حاملة العلاقات الانتاجية الرأسمالية. فالعامل المأجور يختلف عن العبد وعن القن بكونه حراً من السيطرة: فهو يستطيع ان يترك رأسمالياً الى غيره، الا انه عبد طبقة الرأسمالية، كلها، وهو يمتاز عن الفلاح الصغير والحرفي بكونه محروماً من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ولذلك فهو اكثر قدرة على التحرر من التعلق بنظام الملكية الخاصة.

ان التطور الاقتصادي لأي بلدٍ في عهد الرأسمالية يتحدد بتطور صناعته وصناعته الثقيلة قبل كل شيء. والطبقة العاملة هي القوة المنتجة الاساسية في الصناعة. يكفي ان يعلن الاضراب العام حتى تشل حياة الوطن الاقتصادية، كلها، وتتوقف المصانع، والورشات، ومحطات توليد الكهرباء، والنقل، وجميع وسائل المواصلات، فتقف عاجزة امام ذلك جميع وسائل الضغط المتمركزة في أيدي الدولة البرجوازية.

عبثاً تحلم البرجوازية وايديولوجيوها بازاحة العمال المتمردين واستبدالهم بالآت - الذاتية المطواعة، وبالرجال - الآلة. اذ لا يمكن صنع اية آلة ودفعها الى الحركة بدون تدخل العمال. حتى ان انشاء القنابل الذرية والهيدروجينية التي يلوح بها من يريدون اشعال حرب عالمية جديدة مهددين الشعوب بالفناء، يتطلب جيشاً كاملاً من العمال الذين يستخرجون المادة الاولية وينقلونها ويقيمون الاجهزة الذرية والمؤسسات والخ... ان الحرب المعاصرة تتطلب جيوشاً جبارة على الجبهات، وعملاً لا يهدأ فيما وراء الخطوط، وبشكل خاص، تتطلب صناعة، ونقلاً، ومواصلات أما هل يستطيع الرأسماليون تسيير آلة الحرب فأمر يعود الى ارادة الطبقة العاملة قبل كل شيء. فآلة الحرب يمكن ان تتوقف بذراع الطبقة العاملة، الجبار.

ان وضع البروليتاريين يفرض عليهم بالضرورة، السير نحو الوحدة والتنظيم من اجل الدفاع عن مصالحهم الطبقية. ويقتنع البروليتاري، في كل خطوة، أنه إذا تنظم، يصبح هو كل شيء، وإذا كان غير منظم، لا، شيء أمام قوة البرجوازية والدولة البرجوازية التي تقاومه بالقوة.

ويصبح الرأسماليون وخدمهم عن أضرار نضال العمال الطبقي،

بالنسبة الى المجتمع. ولكن لولا هذا النضال لازدادت اكثر مظاهر الطفولية والتعفن والجمود في المجتمع البرجوازي. فنضال الكادحين، وحده، يجبر الرأسماليين ودولتهم على السير خطوات نحو تحسين وضع العمال جزئياً وتقصير يوم العمل وسن قوانين لحماية عمل العمال وغير ذلك.

الجماهير الشعبية هي التي تبني القيم المادية والروحية كلها. وهي بعملها تدفع الى الأمام الانتاج والتقنية والعلم والثقافة. وينبغي ان تكون هي المالكة الشرعية لكل الثروات التي تصنعها بعملها، والتي تستأثر بها الطبقات المستثمرة. ان الشغيلة تشكل الغالبية الساحقة في سكان كل بلد وهي تمثل القوة الحاسمة في التاريخ المعاصر، والقادرة على لجم مشعلي الحرب الجديدة، وعلى قلب الطبقات المستثمرة وبناء المجتمع الاشتراكي الجديد في وطنها.

ومع ظهور البروليتاريا نشأت لاول مرة، الطبقة القادرة، بفضل وضعها الاجتماعي ودورها في تطوير الانتاج، لا على القضاء على شكل الاستثمار الرأسمالي وحسب، بل على اقامة اسلوب الانتاج الاشتراكي، الجديد، وتشييد المجتمع الجديد الخالي من كل استثمار للإنسان. وها هي ذي شعوب ١٣ بلداً - أكثر من ثلث البشرية - تسير على طريق بناء الاشتراكية، والشيوعية. اما نجاحاتها فتفسر بكون الطبقة العاملة، الطبقة الاكثر ثورية في المجتمع، تقف على رأس الجماهير الشعبية.

٥ - دور الجماهير الشعبية في التطور السياسي للتشكيلات المتناحرة.

منذ ان انقسم المجتمع الى طبقات ذات مصالح متعارضة، اصبح تاريخ المجتمع كله، تاريخ صراع الطبقات - المستثمَرة والمستثمِرة، المضطهَدة والمضطهِدة.

فالنضال الطبقي هو القوة المحركة لتاريخ التشكيلات المتناحرة الثلاثة كلها. ويتطور هذا النضال في المجال الاقتصادي والسياسي

والايديولوجي، الا ان التعبير المركز للنضال الاقتصادي هو النضال السياسي اي النضال من اجل السلطة، من أجل ادارة المجتمع كله، من أجل اجراء تبديلات محددة في أشكال بنية الدولة. وهذا امر مفهوم فما دامت الدولة هي السلطة السياسية للطبقة السائدة اقتصادياً، هذه الطبقة التي تستخدم الجهاز الحكومي بمثابة سلاح جبار للضغط على اعدائها الطبقيين، ولإبقاء الطبقات الأخرى في وضعية الالحاق والخضوع، فقضية السلطة هي القضية الرئيسية، للسياسة، وللنضال السياسي. وفي ميزان السياسة تدخل أيضاً العلاقات بين الامم وبين الدول.

ترى ما هو دور الجماهير الشعبية في تطوير المجتمع، سياسياً؟ يتبدل هذا الدور من عصر الى عصر، وفق تبدل اساليب الانتاج، واشكال الاستثار، والنظام الاجتماعي للدولة، الا ان ما يشمل التشكيلات المتناحرة كلها هو ان الجماهير الشغيلة تبقى تحت نير الطبقات المسيطرة، المستثمرة ـ ملاّك العبيد، الاقطاعيين، البرجوازية، الذين يحاولون بكل الوسائل ابعاد الشغيلة عن المساهمة في الحياة السياسية وعن ادارة المجتمع والدولة.

ففي مجتمع الرق لم تتمتع طبقة المنتجين الرئيسية، والتي عاش المجتمع كله على عملها، بأية حقوق مدنية او سياسية. كان العبيد مبعدين، تماماً، عن المشاركة في حياة المجتمع السياسية. ولم يكن حرمان العبيد من الحقوق اساس وضعهم الاقتصادي وحسب، بل أساس ما كان يسود المجتمع من حقوق وقوانين وعادات. كان مالك العبيد يتصرف بحياة عبيده ومصيرهم.

في المجتمع الاقطاعي، كان الفلاحون محرومين أيضاً من الحقوق، ويعتبرون فئة دنيا. كانت جميع الحقوق، بما فيها حق التصرف بمصير الاقنان في ايدي الفئات العليا، الامراء والرؤساء الروحيين.

ان نظام الدولة الاجتماعي الرأسمالي، وجميع النظم التي اوجدتها البرجوازية تبعد العمال وغيرهم من الشغيلة لا عن المساهمة في ادارة الدولة وحسب، بل حتى عن استخدام تلك الحقوق المحدودة التي تمنحها دساتير الدول البرجوازية، شكلياً لجميع المواطنين. فحرية الكلام والنشر

والاجتماع حرية الفرد، حرية تشكيل الاتحادات والاحزاب السياسية الخ ـ كلها تنقلب الى كلام فارغ، الى سخرية من العمال المعرّضين للبطالة والفقر. هذا ولا يمكن الحديث عن حرية الشغيلة التامة، في ميدان الكلمة والنشر، والاجتماع اذا كانت المطابع، والنشر، والورق والراديو والبيانات الضرورية للاجتماع توجد كلها في ايدي البرجوازية.

ان العمال يحصلون نتيجة النضال العنيد ضد البرجوازية، على مختلف الحقوق السياسية: حق الانتخاب العام، حق تأسيس الاتحادات المهنية، والسياسية، والثقافية، والمنظمات، حق الاضراب والتظاهر، ويتوصلون الى تحديد قانوني ليوم العمل وللضمان الاجتماعي والخ... ففي المجتمع البرجوازي تنص الدساتير، عادة على مساواة جميع المواطنين أمام القانون، على حرية الكلمة، والنشر، والفرد، والوجدان، وغير ذلك الا أن جميع هذه الحقوق توجد بالنسبة الى العمال، على الورق، شكلياً، ولا تطبق في الواقع.

ان جماهير الشغيلة في المجتمعات المتناحرة، مسحوقة ليس فقط نتيجة الاستثمار والاضطهاد الاجتماعي والطبقي بل هي محرومة من خيرات الثقافة والتعليم. اما الانسان الامي، فكونه أمياً يُحرَم من المساهمة النشيطة في الحياة السياسية. قال لينين، ان جماهير الشغيلة الواسعة، تقف بطبيعة الحال، قبل الثورة الاشتراكية. خارج السياسة، كما ان الطبقات المستثمِرة والمسيطرة وسلطة دولتها، تبعد هذه الجماهير عن السياسية بجميع الوسائل. انما هذا لا يعني، ان جماهير الشغيلة لم تلعب اي دور في التطور السياسي للتشكيلات الاجتماعية، المتناحرة، كما قد يبدو للوهلة الاولى. فاشكال نظام الدولة، كما يدل للتاريخ، لينست نتيجة الارادة الحرة لهؤلاء او اولئك من رجال الدَولة، بل هي نتيجة نضال الطبقات، الضاري، الذي تساهم فيه جماهير الشغيلة، بهذا الشكل او ذاك، وبهذا القدر او ذاك.

وهكذا مثلاً، فأشكال دول عهد الرق الجمهورية ،(الحكم المطلق، الحكم التعسفي، حكم الاوليغارشيا)، قامت في اليونان القديمة ـ في اثينا، واسبارطة ومقدونيا ـ نتيجة صراع مختلف فئات طبقة مالكي العبيد،

الذين كانوا يعملون على جذب جماهير السكان من فلاحين احرار وحرفيين، الى جانبهم وذلك من اجل التغلب بواسطتهم، على معارضيهم. فاصلاحات سولون[٣٦] ودستوره، لم تكن نتيجة ارادته الحرة بل نتيجة النضال بين الايباتريديين[٣٦م] (الارستقراطية القبلية الغنية) وبين الفئات الديمقراطية من طبقة مالكي العبيد. كما تعكس سياسة سولون النضال العنيد الذي قام بين المالكين وغير المالكين في اليونان القديمة.

ونتيجة هذا الصراع تم حل وسط بين الفئات الغنية والفقيرة داخل طبقة مالكي العبيد. فنص دستور سولون على حقوق وواجبات المواطنين وفق مقدار ما يملكون من الارض. وبذلك حددت حقوق الايباتريديين وروعيت مصالح الفئات المالكة من غير الاشراف في طبقة مالكي العبيد، فمن اجل تأمين هذه المصالح، اضطر سولون لان يطلب مساعدة الديموس اي الجماهير الشعبية ويحررها جزئياً او كلياً من الديون التي كانت تثقل كاهل العديد من مالكي العبيد الآثينيين، ولان يلغي العبودية الشخصية لقاء الدين بالواجبات. وعندما كان يدافع عن مصالح الاغنياء من مالكي العبيد، كان يصور نفسه للشعب وكأنه المدافع، « العادل » تماماً عن الاغنياء والفقراء. يقول سولون، لقد منحت الشعب البسيط، من السلطة القدر اللازم. انني لم احرمه من الحقوق القانونية، الا اني لم افرط في اعطائه شيئاً زائداً. ثم اني لم اجرح شعور من كان يملك الاملاك الواسعة ويتمتع بالنفوذ القوي. ولا بد الآن من ان يصاب بخيبة مريرة كل، هؤلاء الذين علقوا الآمال الكبيرة على « نهب حقول الاغنياء ». انهم يفترضون اني سأتحمل عنفهم وسأنظر بهدوء الى أعمالهم « المنافية للقانون ». وقد أقنع

(٣٦) سولون - مشاع اثينا، واحد حكماء اليونان السبعة (٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م.) عمل على رفع الروح الوطنية لدى سكان اثينا، وخفف العبء الضرائبي عن الفقراء منهم واحل الانسجام في المدينة التي وضع لها دستوراً اكثر ليبرالية من الدستور السابق (المعربة).

(٣٦ م) الإيباتريديون هم أحفاد العائلات الكبيرة ألتي انهزمت نتيجة غزو الهيرقليين (عائلة مالكة تدعي أن أصلها يرجع الى هرقل) لليونان في العصور القديمة، حيث شكلوا طغمة ظلت قوية فترة طويلة من الزمن (المعربة).

سولون في الوقت نفسه، الارستقراطية «أغنياءها وأقوياءها» بالقيام ببعض التنازلات لصالح الجماهير الثائرة والا فان الدولة ستنتهي، وتنتهي معها سلطة الارستقراطية الغنية والقوية.

ان الصراع بين انصار الديمقراطية وانصار الاضطهاد والظلم، الذي كان هدفه جذب الفئات الفقيرة من السكان الاحرار الى جانبهم، يدل على الدور الكبير الذي لعبته هذه الجماهير في تاريخ الدول اليونانية القديمة. وعلى سبيل المثال، فان بيريكليس زعيم الحزب الديمقراطي في أثينا استطاع، باعتماده على العناصر الاكثر تنظيماً في شعب اثينا، وبجذبه الشعب الى جانبه، بالهدايا والدعوات، وبإقامة الاحتفالات وبسياسة «الخبز والتمثيليات»، ان يتغلب على فوكيديد زعيم الحزب الارستقراطي. الا إن كميون سلف فوكيديد استخدم ايضاً سياسة «الخبز والتمثيليات» في محاولته لجذب الجماهير الى جانبه. فكل ما كان تقدمياً في حياة اليونان القديمة، السياسية، انما تم، قبل كل شيء، بفضل كون جماهير السكان (الديموس) قد ساهمت في النضال السياسي. ومن ناحية اخرى، فان نظام المدن والجمهوريات في اليونان الذي كان نظاماً ديمقراطياً في عهد الرق، والذي قام نتيجة نضالِ الجماهير الشعبية، قد سهل مساهمة الجماهير الحرة في الحياة السياسية لهذه الجمهوريات.

لقد اخذت دول عهد الرق في الشرق الاقصى القديم، كقاعدة، شكل الحكم المطلق الذي لم يكن يسمح بجذب الجماهير الى النضال السياسي. كان اقتصاد القبيلة، الطبيعي، الابوي، وتطور التبادل، الضعيف يشكلان الاساس، الاقتصادي، للأحكام المطلقة هذه. فضرورة ري الحقول، رياً اصطناعياً ممركزاً - وهو أمر لا يمكن للزراعة ان تتطور بدونه هناك - قوت أهمية سلطة الدولة المركزية. فأخذت دولة أصحاب العبيد، على عاتقها وظيفة تنظيم الاعمال الاجتماعية، لتنظيم الري، واستخدمت هذه الوظيفة لسحق أفراد المشاعة بأكثر ما يمكن من القسوة. كانت الدولة هناك بمثابة المالك القانوني للأرض، وملاك العبيد (ثم الاقطاعيون)، بمثابة موظفيها الذين يتصرفون بمصائر المشاعات غير المرتبطة ببعضها البعض. ولم تستطع

الجماهير الشعبية الواسعة، جماهير العبيد المستثمرين وفلاحي المشاعة، الحصول على تخفيف وضعها، الا عن طريق الانتفاضات ضد دولة المستثمرين. وتعتبر انتفاضة الجماهير الشعبية، من عبيد وفلاحي المشاعة في شمالي الصين في أعوام ١٨ ـ ٢٧ للميلاد مثالا على مثل هذه الانتفاضات. لقد فشلت الانتفاضة، الا ان نضال الشعب أجبر الطبقة السائدة على القيام ببعض التراجعات: فحصل العبيد من مختلف الفئات على الحرية وخفضت الضرائب.

ان النظام الاجتماعي والحكومي القائم على الرق سواء كان في الصين القديمة وفي الهند، في مصر وفي أشور، في بابل وفي اليونان، في العجم وكارافاغين والهند وغيرها، انتهى تحت ضربات انتفاضات العبيد وفلاحي المشاعة، وتلك الشعوب التي اثقلتها دول عهد الرق بالاضطهاد والافلاس. ومن احدى هذه الانتفاضات في الصين القديمة، يمكن ذكر انتفاضة «العصبة الصفراء» بقيادة تشجان تسزيو التي استقلت عام ١٨٤ للميلاد وزعزعت امبراطورية خان اكثر من ٢٠ عاماً. ولم تسحق من قبل دولة عهد الرق، بعد صراع طويل.

وكانت الانتفاضة التي قادها سبارتاك من اكثر انتفاضات العبيد ضخامة وتنظيماً وكثرة في تاريخ اوروبا القديمة. ونتيجة هذه الانتفاضة عاش اصحاب العبيد في امبراطورية روما العظيمة، سنوات طويلة عيشة رعب.

ان انتفاضات العبيد التي كانت ترافق غالباً بانتفاضات فلاحي المشاعة وجماهير المدن، وكذلك بانتفاضات الشعوب المجاورة المضطهدة، تملأ تاريخ دول عهد الرق كله في العالم القديم. وقد عجّلت هذه الانتفاضات بنهاية مجتمع عهد الرق الذي قام المجتمع الاقطاعي على أنقاضه. ان عهد الاقطاعية مليء بنضال الفلاحين التابعين الاقنان، وسكان المدن المضطهدين ضد الاقطاعيين. وكان رد الفلاحين والحرفيين على تشديد الاستثمار الاقطاعي ـ من زيادة السخرة والعائدات وغيرها من الضرائب الاقطاعية ـ بالنضال السري آناً والعلني احياناً، وبالانتفاضات وكانت

انتفاضات الفلاحين تفشل ، إلا أنها كانت تؤدي الى هذه التبديلات أو تلك في النظام الاجتماعي وفي بنية الدولة.

ان نضال الجماهير المضطهدة انعكس بأشكال مختلفة، في ايديولوجية الطبقات السائدة والمضطهدة، وأثر في تطور الدين، والاخلاق، الفن والادب، الفلسفة والعلوم التاريخية والثقافة بشكل عام.

فبدون دراسة نضال الجماهير الشعبية ضد الاستثمار والاضطهاد لا يمكن فهم تاريخ نظام الدولة وتطور الحقوق. كانت الطبقات المستثمرة تشدد «وتحسن» جهاز الدولة لديها - من جيش وشرطة وموظفين وأسلحة القمع والحيل الهادفة الى سحق الشغيلة. وكانت تبدل من شكل التشريع بهدف سحق الجماهير الشعبية. وقد أدت الانتفاضات الشعبية الى حدوث تراجعات من جانب الطبقات السائدة، والى الاصلاحات المختلفة، التي كانت تهدف الى بث التفرقة بين القوى القائمة بالانتفاضات. وتكمن الاهمية التقدمية للانتفاضات الشعبية، قبل كل شيء، في كونها صلّبت عود القوى التقدمية في الطبقات المضطهدة، ورصت صفوفها، وطورت وعيها الطبقي وبعثت تقاليدها الثورية وقدرتها على الاعمال الجماهيرية الثورية التي نسفت النظام الاقطاعي.

وعرف تاريخ روسيا انتفاضات الفلاحين - الاقنان بقيادة ايفان فولوتنيكوف وستيبان رازين وايميليان يوفاتشايف. لقد هددت تحركات الفلاحين، العديدة في اربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر، باشتعال انتفاضة كبيرة تشمل الوطن كله، وتبث الرعب لدى الاقطاعيين مالكي الاقنان، ولدى الدولة بشكل اجبرتها على اجراء اصلاح زراعي «من أعلى» خوفاً من ان يأخذ الفلاحون انفسهم حريتهم ويقضوا على النظام الاقطاعي كله من أساسه.

كما عرف تاريخ الصين العديد من انتفاضات الفلاحين ضد النير الاقطاعي. ففي عام ٦١٠ اشتعلت انتفاضة فلاحية جبارة في شاندون في الشمال الشرقي من البلاد قلبت حكم عائلة سوي، الحاكمة. وفي عام ٨٧٤ بدأت الحرب الفلاحية برئاسة فان سيان - تشجي وخوان تشاو. وفي عام

١٨٨٠ احتلت قوات الأخير العاصمة، واعدمت أفراد العشيرة القيصرية، وأعلنت خوان تشاو امبراطوراً على البلاد. وامتدت الحرب الفلاحية ضد الاقطاعية حتى عام ٩١٠ ورغم كونها سحقت بقساوة فقد ادت الى انهيار امبراطورية طان.

وفي الاربعينات من القرن الرابع عشر بدأت في الصين حركات ضد سيطرة الغزاة المنغول، ثم تحولت الى انتفاضات مسلحة، قوامها الفلاحون وسكان المدن. وادت هذه الانتفاضات الى طرد الغزاة المنغول من الوطن. ولكن ما ان انتهت الانتفاضة الفلاحية حتى اعيدت من جديد سلطة الاقطاعيين.

وفي عام ١٦٢٨ بدأت في شنسي الحرب الفلاحية التي استمرت حتى عام ١٦٤٤ ونظم الثوار جيشاً بقيادة موحدة وانضباط شديد. وفي عام ١٦٤٤ دخلوا بكين وأعدموا كبار الاقطاعيين وكبار الموظفين وفرضوا جزية على الاغنياء، والغوا الضرائب الكبيرة والديون المرهقة، ونال الفلاحون الارض. الا ان قوى الاقطاعيين المتحدة من صينيين ومنشرويين هزمت الفلاحين الثائرين. لقد اقدم الاقطاعيون الصينيون اثناء نضالهم ضد الفلاحين، على خيانة وطنهم المباشرة، فسلموا بلدهم ووضعوه تحت سلطة الغزاة الاجانب. فطبق الغزاة المنشوريون سياسة تشديد النير الاقطاعي واضعاف الصين من الوجهة الاقتصادية والعسكرية وذلك بهدف الابقاء على سيطرتهم على البلد الكبير. وقد أدت هذه السياسة الى تحويل الصين الى صيد سهل للوحوش الرأسمالية.

تعتبر حرب الفلاحين التايبتيين العظيمة، ذات اهمية كبيرة في تاريخ الصين. بدأت هذه الحرب عام ١٨٥١ في مقاطعة غوانسي كانتفاضة ضد الظلم الاقطاعي وضد العائلة المالكة المنشورية «تسين». كان خون تسيو ـتسيوان، وهو ابن عائلة فلاحية، زعيم هذه الثورة وامخطط لها. كان ينادي بالمساواة العامة والاخوة، وبقيام «دولة الازدهار العظيم». وسار وراءه الفلاحون، وعمال المناجم، والحرفيون، وقسم من التجار وبعض الاقطاعيين، الذين اعتقدوا ان الحركة قد تؤدي الى قلب العائلة

المالكة المنشورية والى توطيد سلطتهم. وفي عام ١٨٥١ أعلن التايبينيون قيام دولتهم في غوانسي برئاسة خون تسيو ـ تسيوان. وفي عام ١٨٥٣ احتلت جيوش التايبينيين خانكين واعلنتها عاصمة لدولتها الجديدة.

أقام التايبينيون جهاز دولة ديمقراطيٍّ جديدٍ على اساس الانتخاب الواسع ـ وأيـد الشعـب التـايبينيون لانهم قضوا عـلى الظـلم المنشوري البغيض، وصادروا اراضي وأملاك كبار الموظفين والاقطاعيين وطبقوا « قانون الأرض » الخاص بهم. إلا أن التايبنيين ارتكبوا خطيئة مفادها عـدم تصفيتهم سـلطة الاقطاعيـين عـلى نطاق الوطن. وسمحوا بـابقـاء المساكن القيـاديـة في ايـدي الاقطـاعيـين الـذين ضربوا تنفيـذ « قـانون الارض »، وقاموا بنشاطٍ معادٍ للشعب ثم توصلوا شيئاً فشيئاً الى وضع السلطة كلها، في أيديهم. ان الاخطاء التي ارتكبها الفلاحون والتناقضات الطبقيـة، الـتي وجـدت في معسكر الانتفـاضـة، استخـدمـت من قبـل اعدائهم ـ الحكومة المنشورية والاقطاعيين الصينيين والدول الاجنبية. فأعلنت الحكومة الانكليزية عام ١٨٥٦ الحرب على الصين بأمل النفاذ الى المرافىء الصينية. وانضمت فرنسا الى انكلترا في هذه الحرب ضد الصين وامدتهما الولايات المتحدة الاميركية بالمساعدة الدبلوماسية والعسكرية. فاستسلمت الحكومة المنشورية ووقعت اتفاقية مجحفة بحق الصين.

ونتيجـة التـدخـل الاجنـبي المتحـالـف مـع الرجعيـة الاقطـاعيـة في الداخل، سحقت انتفاضة التايبينيين ولكنها كانت ذات اهمية كبيرة بالنسبة لتطور الحركة التحررية ـ الوطنية، والى ايقاظ الوعي الوطني لدى الجماهير الواسعة من الشعب الصيني.

ان هذه الانتفاضة التي تميزت بحجمها الواسع، بجماهيريتها، وبطول مدتها تشهد على ارادة الشعب الصيني، التي لا تقهر، في النضال ضد الاضطهاد الاقطاعي ونير الاجانب. ودلت انتفاضة التايبينيين على ان النضال ضد الاقطاعية والنضال ضد السيطرة الاجنبية في ظروف الصين، كانا غير منفصلين احدهما عن الآخر. فنشوء البروليتاريا وتطور نضالها الطبقي في النصف الاول من القرن العشرين وضعا أسس المرحلة الجديدة

من نضال الشعب الصيني التحرري ضد اعدائه في الداخل والخارج. وأدّى هذا النضال، بقيادة الحزب الشيوعي الصيني، الى انتصار الشعب الصيني انتصاراً كاملاً عام ١٩٤٩.

اهمية اتحاد العمال والفلاحين

في الثورة

ان تاريخ نضال الفلاحين في روسيا، والصين وغيرهما من البلاد التي رمت الشعوب فيها عن كاهلها اضطهاد الطبقات المستثمِرة، يبرهن للفلاحين في جميع البلاد، أنهم يستطيعون التحرُّر من الاضطهاد فقط عن طريق اتحادهم الوثيق مع الطبقة العاملة وبقيادتها.

وحتى في تلك البلدان التي استطاعت البرجوازية، في فترة الرأسمالية الصاعدة، ان تترأس فيها نضال الفلاحين ضد الاقطاعية، فانها لم تدافع قط بشكل جدي عن مصالح حلفائها ـ الفلاحين، إنما استخدمت الفلاحين والحرفيين بمثابة قوة الصدام في نضالها من اجل السلطة، من اجل سيطرتها. لقد استخدمت البرجوازية من اجل نفسها فقط، ثمار الثورة المعادية للاقطاعية، ثمار النضال الشعبي، وعندما وصلت الى السلطة محمولة على أكتاف الجماهير الشعبية المناضلة، اوجدت اشكالاً جديدة من اضطهاد هذه الجماهير الشعبية واستثمارها.

هذا ما كان مثلا في الثورة البرجوازية الانكليزية، على سبيل المثال، في القرن السابع عشر حيث انتهى الامر بحل وسط بين البرجوازية والاقطاعيين وكان من نتيجة هذا الحل، أن الفلاحين الانكليز الذين ساعدوا البرجوازية في الوصول الى السلطة ومهدوا الطريق امام تطور الرأسمالية، ظلوا طوال ١٠٠ عام يعانون من الافلاس المتواصل والتحول الى بروليتاريا على يد البرجوازية وملاكي الاراضي من اللوردات، مما أدى الى القضاء عليهم قضاء تاماً في انكلترا، وخلال سير الثورة البرجوازية في انكلترا، قامت البرجوازية، مرات عديدة، بأعمال

ضد الفلاحين وضد فئاتهم من صغار الملاكين بشكل خاص، كما بدلت مراراً حلفاءها في النضال ضد النظام الاقطاعي.

ان ذلك التقدم في الفكر الاجتماعي الذي نتج عن هذه الثورة، اي اعلان افكار الجمهورية وسيادة الشعب ونظرية كون الشعب مصدر كل سلطة عادلة، إنما وجدت فقط نتيجة نضال جماهير الشغيلة. اما المحافظة على بقايا الاقطاعية في النظام الاقتصادي وفي البنيان الفوقي السياسي، وفي الايديولوجية، فقد كان من عمل سياسة البرجوازية المتحالفة، مع الاشراف الجديد.

واذا كانت البرجوازية الانكليزية في القرن السابع عشر قد تحالفت مع الاشراف الجدد في نضالها ضد الحكم المطلق والاشراف الاقطاعيين، والكنيسة الكاثوليكية المسيطرة، فان البرجوازية الفرنسية في نهاية القرن السابع عشر اتحدت مع الفلاحين ضد دعائم الاقطاعية،هؤلاء. ولهذا السبب بالذات، استطاعت البرجوازية الفرنسية القضاء على النظام الاقطاعي، بحزم اكبر، وسارت بالامور الى قيام الجمهورية البرجوازية الديمقراطية. ولهذا السبب بالذات وجهت البرجوازية الفرنسية ضربة اكثر جدية الى الحكم المطلق والى النظام الاقطاعي في اوروبا.

ولكن ثمار الثورة استخدمت حتى في فرنسا القرن السابع عشر من قبل البرجوازية على الخصوص، التي ما ان وطدت سيطرتها حتى شنت سلسلة من الحروب النابليونية العدوانية، بهدف الاغتناء. وغدا الفلاحون الفرنسيون الذين سالت دماؤهم ابان الثورة وخلال الحروب النابليونية، يعانون من اضطهاد الدولة البرجوازية والاغنياء الجدد من الرأسماليين والمصرفيين الذين كانوا يدفعون الفلاحين الى الافلاس بسبب القروض القاسية والضرائب الباهظة وسياسة التسلط العسكري والحروب العدوانية. واللوحة ذاتها يمكن ان يشاهدها المرء في الدول الرأسمالية الاخرى.

لقد دل كل من ماركس وانجلس ولينين عند دراستهم لقوانين التطور

الرأسمالي، على أن الرأسمالية تدفع للإفلاس الحتمي المنتج الصغير، من فلاح وحرفي، وتحوله الى بروليتاري. وهكذا ترفد البروليتاريا، باستمرار، بالمنتجين الصغار المفلسين.

وتعتبر البروليتاريا، باعتبارها الطبقة التقدمية الاكثر تنظيماً، والثورية حتى النهاية، الحليفة الطبيعية لجميع الشغيلة، وزعيمتهم في النضال ضد المستثمِرين كلهم ومن أي نوع كانوا. وقد أشار ماركس وانجلس الى ضرورة النظر الى الثورة البروليتارية في المانيا على أنها « الطبعة الثانية للحرب الفلاحية ». فاتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين الفقراء هو الشرط الضروري لانتصار الثورة البروليتارية وبشكل خاص في تلك الدول، التي يشكل الفلاحون اكثرية السكان فيها.

ان نظريي الاصلاحية والانتهازية في احزاب الاممية الثانية، تناسوا، في معرض تشويههم للماركسية، موضوعة ماركس وانجلز عن اتحاد الطبقة العاملة والفلاحين. وبالاضافة الى ذلك، قاد الانتهازيون، ويقودون الآن، سياسة شق الطبقة العاملة عن الفلاحين هذه السياسة التي تقابل بانشراح اعداء الطبقة العاملة والفلاحين.

لقد عمل لينين لا على تقويم نظرية ماركس التي شوهها الانتهازيون بل على تطويرها ايضاً. فدرس دراسة وافية قضية تحالف الطبقة العاملة والفلاحين سواء كان هذا التحالف في الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية أو الاشتراكية. وهكذا برهن لينين على ان تحالف البروليتاريا مع الفلاحين بقيادة البروليتاريا قادر وحده على القضاء على نظام الاستثمار والاضطهاد، وجعل الثورة الشعبية، ثورة مظفرة. ان اتحاد البروليتاريا مع الفلاحين، وهيمنتها في هذا الاتحاد، شرط ضروري لانتصار الثورة الشعبية في عصر الامبريالية. وبيّن لينين في معرض تعميمه لتجربة الثورات البرجوازية ـ الديمقراطية في الماضي، وفي تحليله لظروف تطور روسيا في عصر الامبريالية، ان البرجوازية عاجزة عن ان تكون المهيمنة او القائدة لنضال الشغيلة، الثوري. كتب لينين يقول « من المفيد للبرجوازية أن تعتمد على بعض بقايا الماضي ضد البروليتاريا، كالحكم المطلق مثلا، والجيش

النظامي والخ... ومن المفيد للبرجوازية، ان لا تقضي الثورة البرجوازية بشكل حازم على جميع بقايا الماضي، بل ان تبقي بعضها، أي على هذه الثورة الا تكون كاملة تماماً، والا تسير الى النهاية، والا تكون حازمة وشديدة »[٣٧].

ومن المفيد للبرجوازية ان تسير التحولات الاجتماعية ـ السياسية، باكثر ما يمكن من البطء وعدم الحزم، عن طريق الاصلاح « بخطوات بطيئة وبتعرجات متقلبة »، وان تعمل هذه التحولات باقل ما يمكن على تطوير المبادرة الثورية واستقلالية الجماهير الشعبية. وعلى العكس من ذلك، فمن المفيد للطبقة العاملة والفلاحين ان تسير التحولات وفق طريق ثورية، لأن طريق الاصلاح هو طريق اللجم والتأخر وموت الاجزاء المتعفنة من النظام الاجتماعي القديم موتاً مؤلماً بطيئاً، هذا النظام الذي تتألم منه البروليتاريا والفلاحون اكثر من اي آخر. يقول لينين: « ان المناضل العنيد في سبيل الديمقراطية لا يمكن ان يكون غير البروليتاريا ولا يكون المناضل في سبيل الديمقراطية ناجحاً، الا، في حيِّز انضمام جماهير الفلاحين الى نضاله الثوري. وفي حال عدم كفاية قوة البروليتاريا فان البرجوازية تتقدم الثورة الديمقراطية وتضفي عليها الطابع غير المتماسك والأناني؛ وليس من سبيل للحيلولة دون ذلك سوى ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية ـ الثورية »[٣٨].

وبرهن لينين، في معرض تعرية المنشفيك وغيرهم من الانتهازيين الذين ينفون الامكانيات الثورية لدى الفلاحين، على ان الفلاحين قادرون على ان يكونوا حلفاء للبروليتاريا في الثورة الديمقراطية « ذلك ان الثورة المنتصرة، انتصاراً تاماً فقط، تستطيع ان تقدم للفلاحين كل شيء في مجال الاصلاحات الخاصة بالارض، كل ما يريده الفلاحون، وكل ما يحلمون به، وما هو ضروري، في الواقع، لهم »[٣٩].

(٣٧) لينين، المؤلفات، الجزء التاسع، ص ٣٤.
(٣٨) لينين: المؤلفات، الجزء التاسع ص ٤٤.
(٣٩) لينين: المؤلفات، الجزء التاسع، ص ٧٩.

وهكذا، فانطلاقاً من المصالح الجذرية للطبقة العاملة والفلاحين، باعتبارهم القوى المحركة الاساسية للثورة الديمقراطية ـ البرجوازية في روسيا، طور لينين منذ عام ١٩٠٥ التوجه الجديد للحزب الماركسي في مجال تكتيك البروليتاريا في ظروف الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية. ففي الثورات البرجوازية التي حصلت في الغرب في القرنين السابع والثامن عشر، لعبت البرجوازية الدور القيادي. أما البروليتاريا، فنظراً لضعفها وانعدام تنظيمها، وجدت نفسها تلعب، شاءت ذلك أم أبت، دور مساعد البرجوازية وكانت تشكل مع الفلاحين احتياطي البرجوازية وقوة الصدام في النضال ضد الاقطاعية. وقد استنتج لينين، اعتباراً من الوضع التاريخي الجديد وتعمق التناقضات بين البرجوازية والبروليتاريا، ورجعية البرجوازية وتعاظم النضج السياسي ودرجة تنظيم الطبقة العاملة، ان البروليتاريا لا البرجوازية، هي التي يجب ان تكون القوة القائدة في الثورة البرجوازية. فالبرجوازية لا تستطيع أن تسير بالثورة الى النهاية المظفرة، لأنها تخونها، بتحالفها مع الاقطاعيين ضد البروليتاريا والفلاحين. فعلى البروليتاريا أن تأخذ قيادة الثورة بيديها، في حين يكون الفلاحين احتياطي البروليتاريا وحليفها الذي تعلق عليه الآمال في الثورة. كان لينين يهزأ من المنشفيك الذين كانوا يخيفون العمال بالقول إن هذا التكتيك «يبعد» البرجوازية عن الثورة وهذا يضعف الثورة على حد زعمهم.

كتب لينين ما يلي: «ان من فهم حقاً دور الفلاحين في الثورة الروسية المظفرة، لا يمكنه القول ان مدى الثورة سيضعف عندما تتراجع البرجوازية. لأنه، في الواقع، عندما تتراجع البرجوازية، وتبرز جماهير الفلاحين كثوريين نشيطين الى جانب البروليتاريا، عندها فقط يبدأ اتساع الثورة الروسية، الحقيقي»(٤٠).

في مرحلة الامبريالية تتحول الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية بقيادة البروليتاريا، قانونياً الى ثورة اشتراكية وتتداخل بها.

(٤٠) لينين ـ المؤلفات، الجزء التاسع ص ٨١.

وقد علم لينين الحزب ان يرى حربين اجتماعيتين وقعتا في روسيا قبل الثورة: نضال الفلاحين والشعب كله ضد الاقطاعيين من اجل الارض ومن اجل اصلاحات ديمقراطية اخرى، ونضال البروليتاريا والفلاحين المعدمين ضد البرجوازية من أجل انتصار الثورة الاشتراكية. وهاتان الحربان الاجتماعيتان متداخلتان فيما بينهما تداخلا وثيقاً. ففي القتال من اجل الانقلاب الديمقراطي، كانت الوحدة ممكنة، في اتحاد البروليتاريا مع جميع الفلاحين، بجميع فئاتهم. وفي النضال من أجل ظفر الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تكون مثل هذه الوحدة، هنا بدون حدود جديدة، وتصنيف جديد للقوى الطبقية. من هنا ينبع رأي لينين، التكتيكي المعروف.

« على البروليتاريا أن تسير بالانقلاب الديمقراطي الى النهاية، موحدة فيها جماهير الفلاحين، من أجل سحق قوة معارضة الحكومة وشل تذبذب البرجوازية. على البروليتاريا ان تنجز الانقلاب الاشتراكي موحدة معها العناصر البروليتارية من السكان، من أجل ضرب قوة مقاومة البرجوازية وشل تذبذب الفلاحين والبرجوازية الصغيرة »[41].

كانت ثورة ١٩٠٥ أول ثورة شعبية حدثت في عصر الامبريالية؛ وعلى خلاف الثورات البرجوازية التي جرت في القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر في الغرب تحت هيمنة البرجوازية، كانت البروليتاريا في روسيا هي القوة القائدة للثورة، كما تنبأ لينين. وقد حدد نضال الطبقة العاملة تطور الثورة كله، واتساعها، واشكالها. « لقد برهنت الطبقة العاملة في روسيا، على ان قوة البروليتاريا، الحقيقية ودورها في المجتمع امور تتحدد في ظروف البلد الزراعي المتخلف، لا بكونها تشكل أكثرية سكان الوطن، بل بطاقتها الثورية، بوعيها السياسي، بقدرتها على ترؤس نضال الشعب، الثوري، بتمكنها من جذب الجماهير الفلاحية الى جانب الثورة، بصفتها حليفة لها[42].

(٤١) لينين ـ المؤلفات، الجزء التاسع، ص ٨١.
(٤٢) لينين ـ المؤلفات، الجزء ٢٣، ص ٢٣٢.

لقد أظهرت ثورة ١٩٠٥ أن الطبقة العاملة ذاتها، وقسمها الطليعي ناضلا بتفان وعناد كبيرين، في حين ان البرجوازية كانت تتاجر مع القيصرية وخانت الثورة. فنضال البروليتاريا، بالضبط، هو الذي ايقظ الشعب كله، وبعث الحماس فيه ودفعه الى الحركة. لقد ثقّف الشعب بالتربية الثورية الديمقراطية. وتصلّب عوده، وغرس فيه التقاليد الثورية الجديدة، واغنى التجربة الثورية.

كتب لينين ما يلي: « إن تربية الجماهير، تربية حقيقية لا يمكن قطعاً ان تنفصل عن النضال السياسي الحقيقي للجماهير نفسها، وعن النضال الثوري بشكل خاص، فالنضال فقط، هو الذي يربي الطبقة المستغلة ويمكنها من قياس قوتها ويوسع أفقها، ويرفع من قدرتها، وينير ذهنها، ويصلّب إرادتها »[٤٣].

لقد ارتقت ثورة ١٩٠٥ بالجماهير الواسعة الى الابداع الثوري الواعي واغنتها بالتجربة السياسية التي لا تقدر، وكانت سواء بالنسبة الى الجماهير او الى الحزب بمثابة المراجعة العامة لثورة ١٩١٧ والتي كان من المتعذر بدونها، كما يقول لينين، ان تنتصر ثورة اكتوبر الاشتراكية[٤٤].

وخلال بضعة اشهر من الثورة نما الحزب الصغير الذي كان يضم بضعة مئات من المنظمين ـ الثوريين، نمواً « مفاجئاً »، وتحولت المئات الى الآلاف، والآلاف اصبحت تقود من ٢ ـ ٣ ملايين بروليتاري، الذين ايقظوا في اعماق ٥٠ ـ ١٠٠ مليون من جماهير الفلاحين، الامل العميق والحركة الثورية. وتردد صدى هذا الواقع في الجيش، وأدى الى الانتفاضات في الجيش والبحرية و« انتقل الوطن العظيم بسكانه الذين يعدون ١٣٠ مليون انسان، الى الثورة »، وتحولت روسيا القديمة، الأبوية الى « روسيا البروليتارية الثورية والشعب الثوري »[٤٥].

(٤٣) لينين، المؤلفات الجزء ٢٣، ص ٢٣٣.
(٤٤) لينين ـ المؤلفات، الجزء ٣١، ص ١٦.
(٤٥) لينين ـ المؤلفات، الجزء ٢٣، ص ٢٣٠.

لقد ارست ثورة ١٩٠٥ اساس التحالف الثوري بين الطبقة العاملة والفلاحين اساس الجبهة الثورية الوحيدة لشعوب روسيا المضطهدة، بقيادة الطبقة العاملة الروسية البطلة. «في عام ١٩٠٥، طرح العمال الروس والفلاحون، لاول مرة في التاريخ، قضية ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين، الثورية - الديمقراطية، قضية السلطة الشعبية، الجديدة؛ ان مجالس النواب العمال، التي أسست في مسيرة الثورة الروسية الاولى، كانت مكسباً تاريخياً عظيماً للطبقة العاملة الروسية. وكانت بمثابة النموذج الاول للسلطة السوفياتية، التي توطدت في الوطن السوفياتي نتيجة انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية، العظمى. ان تجربة المجالس الاولى، كانت بالنسبة الى لينين بمثابة نقطة الانطلاق نحو الدراسة التالية لنظرية السوفييتات باعتبارها الشكل الحكومي لديكتاتورية البروليتاريا[٤٦]. وهذا مثال من الامثلة الساطعة عن اهمية العمل الشعبي في تطوير النظرية والعلم وهي امور سنتحدث عنها فيما بعد.

لقد شنت ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ مرحلة النضال الثوري - التحرري ضد الامبريالية. وكانت الضربة التي وجهتها الطبقة العاملة الثورية والفلاحون، في روسيا الى القيصرية، ضربة الى النظام الامبريالي كله، في الوقت نفسه. ولاقى نضال العمال والفلاحين الروس، تعاطفاً حماسياً من قبل بروليتاريا اوروبا الغربية. وفي حين كان أصحاب المصارف من فرنسيين وانكليز ونمساويين وبلجيكيين، يساعدون القيصرية على سحق الثورة، وذلك بتقديم القروض المجحفة، وفي حين كانت المانيا القيصرية تعد للتدخل العسكري في حال نجاح الثورة، رد عمال اوروبا الغربية على اعمال الطبقات الحاكمة هذه، بموجة من الاضرابات والمظاهرات والمتاريس في براغ. وأدت المظاهرات التي ملأت شوارع فيينا عقب الاضراب العام الذي حدث في اكتوبر ١٩٠٥ في روسيا، الى الاعتراف بحق الانتخاب العام في النمسا. كما كان للثورة الروسية الاولى أثر في نيل الشعب

(٤٦) بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على الثورة الروسية الاولى (موضوعات) ص ٢٧ - ٢٨.

النرويجي لاستقلاله عام ١٩٠٥.

لقد قيم، رجال الحركة العمالية العالمية، البارزون من امثال أ. بيبل وك. ليبكنخت وروزا لوكسمبرغ وغيرهم، تقييماً عالياً، نضال عمال وفلاحي روسيا الثوري ودعوا العمال للتعلم من هذه التجربة. وكان للثورة الروسية أثر متعاظم في تطور الحركة التحررية الوطنية في المستعمرات والدول التابعة. كتب لينين في هذا المجال ما يلي: «لقد دفعت الثورة الروسية الى الحركة اسيا كلها. وتدل ثورات تركيا وايران والصين على ان انتفاضة عام ١٩٠٥ الجبارة تركت آثارا عميقة، وان تأثيرها الذي تبدّى في الحركة المتقدمة لمئات ومئات ملايين الناس، ثابت لا يتزعزع»[٤٧].

وبينت ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ بوضوح، ان مركز الحركة الثورية العالمية قد انتقل الى روسيا، وان البروليتاريا الروسية البطلة أصبحت طليعة الحركة الثورية العالمية.

هذا ويكمن السبب الرئيسي لفشل ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ في ان تحالف العمال والفلاحين لم يكن واسعاً كفاية، وفي إخفاق تحوُّل اعمال العمال والفلاحين الى تيار ثوري واحد. كان الفلاحون لا يزالون يعملون بشكل غير منظم، وغير متواقت مع العمال، الامر الذي مكن القيصرية من الانفراد بهم فئة تلو اخرى. كما اضعف تكتيك المنشفيك، الخائن والانقسامي، الطبقة العاملة التي هي القوة القائدة للثورة.

ان ما لم تنجح البروليتاريا الروسية في صنعه في عام ١٩٠٥، صنعته واتمته بعد ١٢ عاماً اي في عام ١٩١٧.

فالثورة الاشتراكية التي حررت جميع الشغيلة من الاستثمار، رضت بشكل جديد، جماهير الشغيلة، ورفعت وعي الجماهير الشعبية ودرجة تنظيمها ومبادرتها ونشاطها الى مرتبة جديدة، أعلى.

(٤٧) لينين - المؤلفات الجزء ٢٣، ص ٢٤٤.

دور الجماهير الشعبية، البناء
في مرحلة الثورة

يؤكد ايديولوجيو الثورة المضادة الاقطاعية والبرجوازية والرجعية، باستمرار ان الثورة الشعبية هي عبارة عن «اضطرابات» و«عاصفة مجنونة»، و«سيطرة الاضطهاد والعفوية العمياء» و«الخراب المكشوف» و«انعدام أي تخطيط وخلق و«انعدام عقل التاريخ».

وقد بين لينين في معرض تعريته للجوهر الرجعي لعويل أعداء الثورة هذا، أن «المراحل الثورية تتميز، تماما، باتساعها الكبير وبغناها الكبير، بوعيها الكبير وبمنهجيتها الكبيرة، بانتظامها الكبير وبجرأتها الكبيرة، وبوضوح الخلق التاريخي، بالقياس الى مراحل التقدم البرجوازي الصغير، الكاديتي والاصلاحي»[٤٨].

ويصور ايديولوجيو الثورة المضادة، الثورة، بمثابة قوة تخريب فقط، في حين يصورون مراحل التطور البطيء، الاصلاحي، على انها قوة انشاء وتنظيم ممنهج. وفي الواقع، ففي فترات الثورة بالضبط، يستيقظ الفكر الواعي وعقل ملايين الناس، المضطهدين سابقاً، والمسحوقين بالفاقة. إنهم ينسفون، بنشاط وجرأة، مضطهديهم ويستلمون السلطة بأيديهم، ويبدأون ببناء النظم الاجتماعية الجديدة، الشعبية والديمقراطية حقاً، ويظهرون معجزات من البطولة الثورية والخلق الثوري التاريخي.

«ان الإبداع التنظيمي للشعب وإبداع البروليتاريا بشكل خاص، ومن بعدها الفلاحين، يتبدى في مراحل العواصف الثورية أقوى، وأغنى، وأوفى مردوداً بملايين المرات مما هو عليه في فترات ما يسمى بالتقدم التاريخي الهادىء (المتطور)»[٤٩].

فالانتقال من نظام اجتماعي الى آخر لا يمكن ان يتم دون نضال

(٤٨) لينين ـ المؤلفات ـ الجزء ١٠، ص ٢٢٧.
(٤٩) لينين ـ المؤلفات الجزء ١٠، ص ٢٣٣.

الجماهير الشعبية، الثوري ضد النظام القديم الذي ولّى زمانه؛ وقد اشار ماركس الى ان المجتمع البرجوازي، على قلة ما فيه من بطولة تطلب ظهوره التضحية وبطولة الجماهير والحروب الأهلية والمعارك بين الشعوب. ان نضال الجماهير الشعبية نفسه يحل، عملياً، جميع تناقضات التطور الاجتماعي، الجذرية، ويحقق الانتقال الثوري من النظام الاجتماعي القديم الى النظام الجديد، الأكثر تقدمية.

ففي مراحل الثورة، يحل نضال الجماهير الشعبية في بضعة ايام او اسابيع او أشهر تلك التناقضات التي تطورت وتراكمت خلال مئات وآلاف السنين. وكلما كانت الطبقات المسيطرة المستثمرة صلبة في محاولتها تأخير حل هذه التناقضات وكان الاضطهاد أقوى، كان انفجار غضب الجماهير الشعبية، ضد المضطهدين، أقوى. فالفعل يساوي ردة الفعل على غرار ما في علم الميكانيك، كما اشار لينين.

وفي مراحل الثورة تتسارع وتائر التطور الاجتماعي بشكل عظيم. فالثورات، بكشفها كل عمق وحدّة التناقضات الطبقية، تعلم الجماهير وتنورها بتجربتها الخاصة سياسياً واسرع بمئات المرات مما يتم في مراحل سيرالتاريخ الارتقائي البطيء، المتدرّج، لذلك لا تتطلب مراحل الثورة من الجماهير وحسب، بل من قياداتها بشكل أكبر ومن الأحزاب السياسية التي تقود نضال الجماهير، أعظم قدر من استنفار القوى وجمعها. كتب لينين في هذا المجال: تتطلب الثورات، «أن يطرح قادة الأحزاب الثورية، بشكل أوسع وأكثر جرأة، مهماتهم في وقت كهذا بحيث تسير فيه شعاراتهم دائماً في مقدمة وعي الجماهير، الثوري، وتكون بمثابة المنارة بالنسبة لها، وتريها مثلنا الأعلى الديمقراطي الاشتراكي في كل عظمته وبهائه، وتدلها على أقرب الطرق الى النصر المؤكد الحاسم وأكثرها استقامة»[٥٠].

ان نضال الجماهير الشعبية، الثوري، لا يعلّم وينور ويصلب الجماهير فقط، بل وقادتها ايضاً. فبدون هذا التصليب يصبح الحزب الذي ينظم

(٥٠) لينين ـ المؤلفات ـ الجزء ٩ صفحة ٩٣ ـ ٩٤.

الجماهير من اجل النضال عاجزاً عن ايصالها الى النصر. ان الطبقة العاملة، ان الجماهير الشعبية لا تستطيع تحقيق النصر في الثورة، إلا اذا دفعت من صفوفها طليعة لها تكون قادرة على قيادة نضالها، وإلا اذا أيدت الجماهير، باخلاص، هذه الطليعة ورفدت صفوفها باستمرار بالمناضلين الاكثر شجاعة، وإخلاصا وتجربة.

دور الجماهير الشعبية في حركات التحرر الوطني وفي النضال المعاصر في سبيل السلم والديمقراطية والاشتراكية

ان الطبقات المستثمِرة لا تكتفي باستثمار شعبها، بل تجهد ايضاً الى حيازة ثروات العشائر والشعوب المجاورة، وتخضع الشعوب الاخرى. وتعتبر هذه الطبقات وحكوماتها المنظمين للحروب الامبريالية غير العادلة، حروب العصابات والغزاة وذلك بهدف نهب الشعوب الاخرى وافقارها. وتحمل هذه الحروب التي تغني المستثمِرين، الآلام التي لا تحصى للجماهير الشعبية. في حين تحمل الطبقات المستثمرة عبء الحروب، كله، للشغيلة.

يؤكد بعض ايديولوجي البرجوازية الامبريالية، ان الدور الحاسم في الحروب المعاصرة لا تلعبه الجماهير الشعبية والجيوش التي قوامها الجماهير، بل اما الجنرالات واما نخبة صغيرة من كوادر الجيش المسلحة بالتكنيك العالي، واما فروع خاصة من الجيش ـ كالطيران والدبابات والقنابل الذرية او الهيدروجينية ـ وبالاختصار، التكنيك وعبقرية الجنرالات، لا الشعب. لقد انتشرت انتشاراً واسعاً، امثال هذه النظرية قبل الحرب العالمية الثانية. ورغم انهيار هذه النظريات ابان الحرب، فهي تنتشر الآن ايضاً. كتب الاميركي هوك، تلميذ المثالي الذاتي، الرجعي ديوي في كتابه « بطل في التاريخ » الصادر عام ١٩٤٣، ان مصير الشعوب يتعلق في فترة الحروب والثورات، بالقادة، بقرار شخص او بضعة اشخاص. هذه النظرات المثالية لا يجمعها اي جامع مع العلم. وقد دحضت الوقائع منذ زمن بعيد، هذه النظريات وحطمتها. ان ما يقرر نتيجة الحرب، ليس

عاملاً واحداً، بل سلسلة كاملة من العوامل الاساسية المترابطة فيما بينها، بما في ذلك عدد ونوعية المحاربين وسماتهم الاخلاقية - السياسية والقتالية كمية ونوعية السلاح، الوضع في المؤخرة، الروح الاخلاقية - السياسية التي تسود الشعوب المساهمة في الحرب، نوعية وعدد تركيب قيادة الجيش. وتتعلق جميع هذه العوامل وغيرها ايضا بنظام الوطن، الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي، وتتعلق في نهاية المطاف، بنظرة الشعب الى الحرب، والى سياسة الطبقات التي تقود هذه الحرب. لقد اعمى الحقد على الشعب الستراتيجيين - التعساء الرجعيين وخدامهم الايديولوجيين، بحيث نسوا مثل هذا العامل الهام اي معنويات الشعب ونظرته الى الحرب.

يمكن ان يكون دور الجماهير الشعبية في حصيلة الحرب، مختلفا في بلدان مختلفة وفي عصور مختلفة - وهذا يتعلق بطابع الحرب وبماهية الطبقات التي تقودها، والتي لها مصلحة بها، وبدرجة استطاعة هذه الطبقات الحصول على مساندة الجماهير الشعبية الواسعة، او، على العكس، الى اية درجة تقف الجماهير الشعبية ضد هذه الحرب وما هو مقدار عملها النشيط ضدها.

هذا ولا يمكن السير طويلاً وبنجاح بحرب جدية إذا كان الشعب والجيش يعارضانها. حتى ان أباطرة روما العظام اضطروا الى ان يحسبوا حساب لا فئة أشراف روما مالكي العبيد وحسب، بل وافراد الشعب الذين يتشكل الجنود منهم. ومن المعروف ان الجنود كانوا يقلبون بعض الاباطرة وينصبون غيرهم على روما. ويمكن تفسير نجاحات حروب روما التي أدت الى توسيع الامبراطورية، واحتلال اليونان ومصر وقرطاجة وبلاد آسيا الصغرى، لا بميزات تنظيم روما، العسكري وحسب، بل وبكون جنرالات روما تمكنوا من استخدام التناحرات الطبقية والتناقضات القبلية في الدول المجاورة وعملوا وفق مبدأ «فرق تسد».

وعندما دخلت امبراطورية روما مرحلة أزمة عهد الرق، وافلست الجماهير البسيطة التي كلنت تجمع منها الجنود، وتفاقمت التناقضات الطبقية داخل البلد فقدت روما ميزة الروح المعنوية لدى محاربيها

وجيشها، وبدأ الخط العسكري يخونها. واخذت روما تتحمل الهزيمة اثر الهزيمة من هؤلاء البرابرة انفسهم، المسلحين تسليحاً سيئا، والذين يقلون عنها تجربة عسكرية، والذين هزمتهم روما، فيما مضى، ببساطة نسبية، في اي شيء يكمن السبب الاساسي لفشل مخططات نابليون، الاحتلالية، ولهزيمته في موسكو وفي المعارك قرب لايبزغ وواترلو؟ ترى، أهو في ضعف عبقريته العسكرية؟ أو ان الجليد الروسي القاسي والشتاء الروسي أنهك جيش نابليون وكذلك الزكام الذي أصاب الجنرالات وغير ذلك من الاسباب المماثلة كما يؤكد المؤرخون المتملقون وكما جاء في تاريخ حياة نابليون؟

كلاًّ، طبعاً. ان الاسباب الرئيسية لهزيمته تكمن في السياسة البرجوازية العدوانية التي ايدها نابليون، والتي اثارت ضده، بشكل تدريجي، غضب شعوب اوروبا، وادت الى الانتفاضة الشعبية في اسبانيا، التي عجزت عن قمعها جيوش نابليون. لقد حركت هذه السياسة المعادية للشعب موجة جبارة من الغضب الشعبي ضد جيش نابليون وادت الى حرب شعبية حقيقية في روسيا، التي سحقت جيش الغزاة الجبار المتعدد الاجناس.

لقد حركت سياسة الغزو جميع شعوب ودول اوروبا ضد فرنسا النابليونية. كما ادت، بشكل متزايد الى استياء الشعب الفرنسي نفسه والفلاحين بشكل خاص الذين كانوا يقدمون الجنود للحروب النابليونية المخربة والتي لا نهاية لها. لذلك بدأت جيوش نابليون التي احتلت نصف اوروبا، تتحمل الهزيمة اثر الهزيمة، وأدت الهزائم إلى حدٍّ كف معه عن تأييد نابليون، معلموه انفسهم، الرأسماليون الفرنسيون الذين شنت هذه الحروب لمصلحتهم. وهكذا فبعد المعارك الدموية العديدة، والانتصارات الباهرة، والنجاحات العظيمة، والتضحيات التي لا تحصى، التي تحملتها فرنسا وشعوب الدول الاخرى بسبب هذه الحروب، ها هي فرنسا تغدو مغلوبة، مذلولة محرومة حتى مما كانت تملك قبل النجاحات.

لنأخذ امثلة أقرب من تلك ـ لنأخذ صراع امبريالي المانيا وامبريالي

الولايات المتحدة وانكلترا من اجل سيادة العالم. كلنا يعلم إلى ما انتهت محاولات امبريالي ألمانيا لتوطيد سيطرتهم على العالم، وهي المحاولات التي سببت حربين عالميتين.

من المعروف ان الحزب الفاشي الهتلري، كلب الامبريالية الالمانية الثمين، هذا، اعلن ان هدف حربه هو القضاء على الاتحاد السوفياتي، تهديم وافقار شعوب اوروبا ورفع صرح سيطرة المانيا على العالم كله مدة لا تقل عن الفي عام. ونتيجة تغاضي الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا، احتلت جيوش هتلر الفاشية جميع دول اوروبا الغربية، تقريباً، بما فيها فرنسا. لقد احتلت تشيكوسلوفاكيا وبولونيا ورومانيا والبلقان، وهاجمت الاتحاد السوفياتي غدراً، وزحفت نحو الاورال وباكو وارادت إذلال ايران ومصر والهند. ولكن ما الذي حصل؟ ان المانيا الفاشية، التي أسالت بحاراً من الدماء وقتلت عشرات ملايين الناس، واحدثت الكثير من الخراب وقضت على العديد من الثروات المادية والروحية، قد هزمت من قبل القوات المسلحة السوفياتية والحلف المعادي للهتلرية، وقوات الشعوب التي هبت للنضال في سبيل الحرية والاستقلال. وتحقق ما كان الشيوعيون قد تنبأوا به. لقد تلاحم نضال شعوب الاتحاد السوفياتي في سبيل حريتها واستقلالها، ومن اجل نظامها الاشتراكي، مع نضال جميع الشعوب الاخرى التي هددتها المانيا الهتلرية بالخراب والفقر. ونتيجة انهيار المانيا الهتلرية واليابان الامبريالية انتشل مئات ملايين الناس من العبودية الرأسمالية ووقفوا على طريق بناء الاشتراكية، واصيبت المنظومة الرأسمالية بخسارة فادحة، وضعفت، في حين تصلب المعسكر الاشتراكي وتوطد ونما بمقدار يزيد عن اربعة اضعاف ما كان في السابق واصبح يشمل الآن ثلث البشرية.

وتدل الوقائع على دور الجماهير الشعبية، المتنامي، في تطور المجتمع.

لقد حاول امبرياليو الغرب واليابان، خلال عشرات السنين، احتلال الصين وتقسيمها، كما أذلوا شعوب الهند، والهند الصينية، واندونيسيا وكوريا والدول الآسيوية الاخرى. كما حاول امبرياليو الولايات المتحدة

الاميركية، بعد انهيار اليابان الامبريالية في عام ١٩٤٥، الحاق الصين بهم. فسلحوا، لذلك، جيش صنيعتهم وقائد الشعب الصيني تشان كاي شيك، وانفقوا عليه اكثر من ستة مليارات من الدولارات. ومع هذا استطاع الجيش الشعبي - الثوري الصيني بقيادة الشيوعيين والذي كان في البدء اقل تسليحاً من ذاك، ان يهزم جيش شان - كاي شيك الكبير العديد والمجهز جيداً من قبل الاميركيين، وينسف مشاريع امبريالي الولايات المتحدة التي تهدف الى اخضاع الصين.

وعلى هذا الشكل ايضاً انتهت محاولات الامبرياليين الاميركيين التي تهدف الى اذلال شعوب كوريا الشمالية والفيتنام الشمالية. وغدت الهند وبورما واندونيسيا ومصر وغيرها دولاً ذات سيادة.

وقد لعب الدور الحاسم في التحرير من النير الاستعماري، النضال التحرري العادل الذي شنته شعوب هذه البلاد وكذلك مساعدة الطبقة العاملة في تلك الدول الامبريالية، التي قادت هذه الحروب الاستعمارية القذرة. فنضال الوطنيين الفرنسيين ضد الاستمرار في الحرب القذرة ضد الفيتنام، كان على سبيل المثال، بمثابة مساعدة قدمت للشعب الفيتنامي.

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كانت فيه الطبقات المستثمرة تستطيع بسهولة نسبية، استخدام الجماهير الكادحة لحماً للمدافع في الحروب غير العادلة، حروب النهب والغزو، المختلفة. ان الطبقة العاملة ترفع شعار الاخوة الاممية بين بروليتاريا وشعوب هذه الدول ضد ايديولوجية البرجوازية الشوفينية وسياستها القائمة على الاقتتال بين الشعوب الإخوة.

لقد فضح حزب البلاشفة برئاسة لينين، ابان الحرب العالمية الاولى، انتهازية وشوفينية احزاب الاممية الثانية، وخيانة هذه الاحزاب لمبادىء الاممية البروليتارية والاشتراكية. ورفع الشيوعيون بقيادة لينين شعار تحويل الحرب الامبريالية الى حرب أهلية ضد البرجوازية وحكوماتها - منظمي الحرب.

وكانت شعوب روسيا أول من جسد هذا الشعار في الحياة العملية. واستطاعت هذه الشعوب المتراصة تحت العلم الماركسي اللينيني للاممية

الـبروليتـاريـة، تحت عـلم الحزب الشيوعي، ان تنسف في عـام ١٩١٧ ، الحكومة الامبريالية، وتقيم سلطة العمال والفلاحين، التي انتشلت الوطن من الحرب الامبريالية واقترحت سلماً عادلاً ديمقراطياً بين شعوب الدول المتحاربة.

فعمد الشوفينيون ـ الاشتراكيون، في تبرير خيانتهم للاشتراكية في الحرب العالمية الاولى، الى الافتراء على الجماهير الشعبية مؤكدين ان الشعوب نفسها هي التي وقفت الى جانب الحرب وايدت الحكومات الامبريالية في الحرب. وقد فضح لينين هذا الافتراء، مشيراً الى انه لم يحدث في اي مكان ان سئلت الشغيلة عن موافقتها او عدم موافقتها على خوض الحرب، عن موافقتها او عدم موافقتها على دفع الضرائب الضرورية للحرب الامبريالية، لقد جندوا ببساطة، العمال والفلاحين، في الجيش، وساقوهم للحرب في ظروف الاوضاع الحربية. اما هؤلاء الذين تجرأوا برفع صوتهم ضد الحرب الامبريالية فقد لوحقوا واعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص. لقد ساقوا العمال والفلاحين الى الحرب عن طريق الاكراه العسكري والقوة والاحتيال، اما الانتهازيون وخونة قضية الاشتراكية، من الاشتراكيين ـ الديمقراطيين فكانوا عملاء البرجوازية الامبريالية وساعدها الأيمن في خداع الجماهير. لقد غيروا اتجاه الجماهير ودفعوها عن الطريق الثوري الذي رسم قبل الحرب في قرارات مؤتمر الاممية الثانية الذي عقد في بال.

اما الممثلون الحقيقيون للطبقة العاملة، للجماهير الشعبية فكانوا هؤلاء الاشتراكيين الذين ظلوا امينين لقضية الاممية البروليتارية الذين قالوا الحقيقة، للشعب، فيما يخص اهداف الحرب وطابعها الامبريالي، وكذب شعار « الدفاع عن الوطن » في هذه الحرب. لقد دعا الاشتراكيون الحقيقيون الشغيلة، للنضال ضد الحرب الامبريالية، لقلب الحكومات الامبريالية واقامة سلطة العمال والفلاحين، الاشتراكية، التي تنهي جميع الحروب. لقد علّم لينين الاشتراكيين، الممثلين الحقيقيين للطبقة العاملة، قول الحقيقة للشعب، وتعرية الكذب البرجوازي فيما يخص الحرب وتطوير

اعمال الجماهير، الثورية ضد الحروب الامبريالية، واقامة المنظمات القتالية، القادرة على قيادة نضال الجماهير ضد مثل هذه الحرب. فبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية، العظمى في روسيا، ارتقى نضال الطبقة العاملة، نضال شغيلة جميع البلدان ضد الامبريالية والحروب الامبريالية العدوانية، الى مستوى جديد أرفع. صحيح ان البرجوازية الامبريالية استطاعت ان تبدأ حرباً عالمية ثانية، وان توجه، من ثم، العدوان الهتلري ضد الاتحاد السوفياتي، الا ان الحرب العالمية الثانية اخذت طابعاً تحررياً ـ وطنياً، وتحولت الى حرب الشعوب المحبة للحرية ضد الفاشية الهتلرية والامبريالية اليابانية.

ولأول مرة في التاريخ يمثل امام محكمة الشعوب، تحت تأثير ارادة الشعوب مجرمو الحرب الاساسيون ومنظموها، وتنتهي حياتهم على اعواد المشنقة ـ ليكونوا عبرة للجدد من مشعلي الحرب ومنظميها.

ولاول مرة في التاريخ تعززت ارادة الشعوب التي هبت للنضال من اجل سلم عادل، ديمقراطي، بميثاق منظمة عالمية تضم دولا ذات انظمة سياسية واقتصادية مختلفة، ـ دستور هيئة الامم المتحدة ـ والتي تعتبر المحافظة على السلم وأمن الشعوب، مهمة رئيسية لها.

لقد ظهرت ارادة الشعوب في السلم جبارة لدرجة انها اوقفت حرب الامبرياليين ضد كوريا والفيتنام، ونسفت مشاريع مشعلي الحروب في إثارة حرب عالمية جديدة. كما ادت ارادة الشعوب في السلم الى اجتماع رؤساء الحكومات الاربعة في جنيف عام ١٩٥٥، واوجدت «روح جنيف» ووجهت ضربة لسياسة «الحرب الباردة» وجعلت من مبدأ التعايش السلمي بين الانظمة الاجتماعية المختلفة، حقيقة. ان ارادة الشعوب في السلم ادت الى هزيمة عدوان انكلترا وفرنسا واسرائيل على مصر، هزيمة نكراء.
ان نجاحات الشعوب في النضال من اجل السلم تتضح من نمو وعي الجماهير، المتعاظم وزيادة درجة تنظيمها. لم تعد جماهير الشغيلة في العالم كله، الآن، كما كانت عليه قبل انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، وقبل انتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية، وقبل نشوء دول

الديمقراطية الشعبية وقبل انتصار الثورة الشعبية في الصين. ان شعوب العالم اجمع تؤمن اكثر فاكثر ان الطريق الذي انتهجه الشعب السوفياتي وبلاد الديمقراطية الشعبية في النضال ضد الحروب هو الطريق الأسلم والآمن. كما تؤمن شعوب الدول الرأسمالية، اكثر فاكثر، انه لا يجوز ترك السلطة في ايدي الحكومات الامبريالية الرجعية، التي تهدد سياستها حرية وأمن الشعوب. لذلك تناضل الجماهير الشعبية بحزم متزايد ضد قوى الرجعية وضد مشعلي ومنظمي حرب جديدة، وفي سبيل انتصار قضية السلم والديمقراطية والاشتراكية.

ان ازدياد وعي الجماهير الشعبية ودرجة تنظيمها وإصرارها وقوتها في النضال من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية، يشهد على تعاظم تنظيم الطبقة العاملة، والشغيلة، على تعاظم الاتحادات النقابية والمنظمات النسائية والشبيبية والديمقراطية والوطنية والمعادية للفاشية والحرب، على تعاظم الاحزاب الشيوعية ونفوذها بين الجماهير، على زيادة هيمنة البروليتاريا، وعلى الدور القيادي للاحزاب الشيوعية في حركة الجماهير التحررية.

ان الشغيلة لم يكونوا في يوم من الايام، على هذه الدرجة من التنظيم في المجالين، الوطني والعالمي، كما هم عليه الآن. ويعد اتحاد النقابات العالمي، في صفوفه اكثر من ٨٨ مليون انسان، ويعد الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي ٢٠٠ مليون عضوة من ٨٠ دولة[٥١]. ويضم اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ٨٥ مليون شاب وشابة من ٩٧ دولة، واتحاد الطلاب العالمي، ما يقرب من ٦ ملايين طالب من ٧٢ دولة. كما تنمو وتتوطد المنظمات الديمقراطية، الفلاحية، والانتلجنسيا: كالكتاب والصحفيين، والمعلمين، والعلماء وغيرهم من العاملين في ميدان الثقافة. وتشتمل منظمات انصار السلم على مئات ملايين الناس، من مختلف

(٥١) اصبح عدد الدول التي انتسبت جمعياتها الى الاتحاد النسائي الديمقراطية العالمي ١٠١ دولة. ـ المعربة.

الاتجاهات السياسية، والدينية، والفلسفية. كما تنمو وتتوطد الاحزاب الشيوعية والعمالية، المناضلة في سبيل وحدة الطبقة العاملة، في سبيل اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين، والتي ترص تحت علمها جميع قوى الشعوب الطليعية والتقدمية والوطنية في النضال في سبيل السلم والحرية والاستقلال وامن الشعوب.

ولكن لا بد من اعتبار ان زيادة وعي وحسن تنظيم الجماهير الشعبية يتم بشكل مختلف تماماً في الدول المختلفة، وهو امر يتعلق بالظروف التاريخية والاقتصادية والسياسية لتطور كل بلد، وبخصائص وضعه الداخلي والعالمي، وبتطور النضال الطبقي والحركة البروليتارية الثورية والحركة التحررية ـ الوطنية، وبنسبة القوى وبدرجة نشاط الطبقات والاحزاب السياسية المختلفة اي بالعوامل الموضوعية والذاتية المختلفة لحركة الجماهير، التاريخية. ان نمو وعي ودرجة تنظيم الجماهير لا يتم بشكل عفوي، تلقائي بل نتيجة نضال القوى التقدمية والطبقات. وهو قبل كل شيء، في الوقت الحاضر نتيجة العمل التربوي الجبار المنتظم، العنيد، والعبور ـ الايديولوجي والسياسي والتنظيمي ـ عمل الاحزاب الشيوعية في اعماق الجماهير بما في ذلك وسط اكثر الشغيلة تأخراً وعدم تنظيم.

فبالاضافة الى الناس التقدميين والواعين بين جماهير الشغيلة، وبالاضافة الى الطليعة فيها، يوجد قسم لا يستهان به من قليلي الوعي وغير الواعين، من الذين لا يزالون يعيشون في الظلام، من المعدمين والسلبيين، من المسحوقين بالفاقة والفقر والاضطهاد القومي والاجتماعي، والواقعين تحت تأثير ايديولوجية البرجوازية الرجعية، التي تجمع التعصب القومي وبسيكولوجيا واخلاق الملكية الخاصة. إن غالبية شغيلة الدول الرأسمالية توجد كل يوم وكل ساعة، تحت تأثير الايديولوجية والسياسة البرجوازية تحت تأثير الدعاية المغرضة ضد الشيوعيين، في حين ان منظمات الطبقة العاملة (من احزاب واتحادات نقابية) لا تضم كقاعدة في ظروف الرأسمالية، غالبية الشغيلة، بل اقليتها. وهذا التأثير حتمي في ظل نظام الاستثمار والاضطهاد.

تدل تجارب التاريخ، على ان الرجعية الامبريالية، المعتمدة على قوة رأس المال والتي تستخدم آلة الدولة البرجوازية وأساليب الفساد، والرشاوى والاحتيال والاتهامات الباطلة ضد الشيوعية، تستطيع بمهارة استخدام تأخر الجماهير وجهلها وعدم تنظيمها. والرجعية قادرة على استخدام العناصر المنفصلة عن طبيعتها ـ الحفاة والمعدمين والمتشردين (اللومبني بروليتاريا) ـ من اجل تحويل ثورتها العفوية على الاضطهاد الرأسمالي ضد الطليعة الثورية ومنظماتها، خصوصاً اذا كانت هذه المنظمات ضعيفة الارتباط بالجماهير، ولا تعمل يومياً في اعماق الجماهير، لا تثقفها كما يجب ولا تنظمها. يشهد على ذلك تاريخ تحضير الانقلابات الفاشية في ايطاليا، والمانيا وهنغاريا وبولونيا واسبانيا وغيرها من الدول في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين.

فإبان الانقلاب الفاشي في هنغاريا في تشرين الثاني ـ كانون اول ١٩٥٦ حاولت البرجوازية المضادة للثورة خداع الجماهير بالشعارات الكاذبة والديماغوجية، الموجهة ضد شيوعيي هنغاريا وضد الاتحاد السوفياتي؛ واستخدمت القوى السرية الفاشية المعادية للثورة، بمهارة صعوبات بناء الاشتراكية، ونواقص واخطاء القيادة السابقة للحزب والدولة، التي كانت تقود البلد، واستياء الجماهير الناشيء عن هذه الصعوبات والاخطاء، كما استخدمت ضعف صلة الشيوعيين بالجماهير، والتخلخل الايديولوجي داخل حزب الشغيلة المجري.

يؤكد هذا كله مرة اخرى النظرية الماركسية ـ اللينينية التي مفادها ان صلة الحزب الوثيقة بالجماهير وأن عمل الحزب الشيوعي الذي لا يكل في ميدان التثقيف السياسي وتنظيم الجماهير، هما وحدهما اللذان يبعثان الوعي الاشتراكي في حركة الجماهير الشعبية.

ان دور الاحزاب الشيوعية، القيادي يؤمن هيمنة البروليتاريا في الحركة التحررية للجماهير الشعبية، ويضفي عليها وعياً عالياً وتنظيماً جيداً ويعيّن لها الهدف الواضح وآفاق التطور، ويدلها على الطريق الحقيقي المؤدي الى الانتصار على الرجعية الامبريالية وعلى مشعلي الحرب الجديدة

والى توطيد السلم.

ان نجاحات شعوب الاتحاد السوفياتي ودول الديمقراطية الشعبية في بناء الاشتراكية، في النضال من اجل السلم والصداقة بين الشعوب تحمس شغيلة الدول الرأسمالية والمستعمرة والتابعة في نضالهم من اجل التحرر من النير الاجتماعي والقومي وتبعث فيهم الشجاعة والإيمان بالنصر.

ان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي توصل، في معرض تعميمه لعمليات نمو قوى السلم والديمقراطية والاشتراكية في العالم كله، الى نتيجة مفادها ان امكانية تجنب حرب عالمية جديدة، متوفرة في الظروف العالمية المعاصرة. وتتحدد هذه الامكانية أولا - بوجود المعسكر الاشتراكي الجبار الذي يدافع عن قضية السلم، ثانياً - بوجود مجموعة كبيرة من الدول غير الاشتراكية (بما فيها الهند) التي تعد مئات ملايين المواطنين، والتي تعمل بنشاط ضد الحروب. ثالثاً - بوجود حركة انصار السلم الجبارة. كما ان الحركة العمالية في الدول الرأسمالية أصبحت قوة عظيمة. وتقوى حركة التحرر الوطني التي تقودها شعوب المستعمرات والدول التابعة، هذه الامور كلها توسع من امكانية التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة وتؤمن امكانية تجنب الحرب.

ومن الطبيعي انه تبقى قائمة في هذه الظروف الموضوعية القائلة بانه ما دامت الامبريالية موجودة، فان الاساس الاقتصادي لنشوء الحروب واشعالها من قبل الامبرياليين، يبقى قائماً. وما دامت هناك رأسمالية على الارض فان القوى التي لها مصلحة بالحروب، تبقى موجودة.

ان العدوان الانكليزي - الفرنسي - الاسرائيلي ضد مصر يؤكد صحة هذا الاستنتاج، ويذكّر الشعوب المحبة للسلم بأن خطر الحروب لا يزال جاثماً في اعماق النظام الرأسمالي. لذلك، فعلى الجماهير الشعبية ان تبدي حيوية فائقة وان تتابع باهتمام جميع خطوات مشعلي الحروب، وان تهدم بنضالها في سبيل السلم، مشاريع المعتدين. وتتوفر، الآن لهذا الغرض، قوى اجتماعية جبارة. فلا بد من ان تتابع جميع القوى المناهضة للحروب، نضالها من اجل الحفاظ على السلم وتوطيده.

ونتيجة التحولات الجذرية التي تمت، في الميدان العالمي لصالح الاشتراكية، ونتيجة التعاظم الكبير لقوة جذب الاشتراكية وسط العمال والفلاحين والانتلجنسيا العاملة، ونمو الوعي السياسي ودرجة التنظيم، والمبادرة لدى الجماهير الشعبية ونشاطها ودورها ووزنها في تقرير مصير اوطانها تقوم، لا شك، ظروف مواتية اكثر لظفر الاشتراكية.

وبفضل ذلك، وبفضل كون الاشتراكية، قد انتصرت في الاتحاد السوفياتي وفي بلدان الديمقراطية الشعبية، على الخصوص، نشأت امكانية ظهور اشكال جديدة للإنتقال الى الاشتراكية في عدد من الدول. «ان الطبقة العاملة برئاسة فصيلتها الطليعية، تملك، في الظروف الراهنة في عدد من الدول الرأسمالية، امكانية واقعية لان توحد تحت قيادتها الاغلبية الساحقة من الشعب، وتؤمن انتقال وسائل الانتاج الاساسية الى ايدي الشعب. فالاحزاب البرجوازية اليمينية والحكومات التي تشكلها، تعاني الافلاس تلو الافلاس. وفي هذه الظروف فان الطبقة العاملة، التي توحد حولها الفلاحين الكادحين، والفئات الواسعة من الانتلجنسيا وجميع القوى الوطنية، والتي تعارض بحزم العناصر الانتهازية، غير القادرة على رفض سياسة الوفاق مع الرأسمالية والاقطاعيين، تملك امكانية إفشال القوى الرجعية المعادية للشعب، وكسب الغالبية الساحقة في البرلمان وتحويله من جهاز الديمقراطية البرجوازية الى سلاح الارادة الشعبية الحقيقية»(٥٢).

ويتمتع نضال جميع الشعوب من اجل حريتها واستقلالها، وضد الظلم الاجنبي بأهمية تاريخية تقدمية عظيمة. ان الظلم الاجنبي يؤخر ويسحق تطور الشعوب، اقتصادياً وثقافياً. ووضع شعوب المستعمرات والدول التابعة يؤكد ذلك بوضوح كبير. فالنضال ضد النير الاجنبي ومن اجل الحرية والاستقلال هو النضال من اجل الشروط الاولية الضرورية لحياة الشعوب وتطورها.

(٥٢) المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي ـ التقرير المختزل ـ الجزء الثاني دار نشر الادب السياسي ١٩٥٦ ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

لقد صد الشعب السوفياتي على مدى عصور عديدة هجمات الكثير من الغزاة والمحتلين. ودافع عن حريته وعمله السلمي ضد الخازاريين والبولوفيين والبيتشينيفيين، كما ناضل طوال قرنين كاملين ضد الغزو التتري. وقد هاجم الارض الروسية ـ الغزاة ـ الصليبيون الألمان، والنمساويون، والمتدخلون البولونيون والاتراك وجيوش نابليون. كما كان على شعوب الوطن السوفياتي، الاخرى، كالاوكرانيين والبيلوروسيين والليتوانيين واللاتفيين والجيورجيين والأرمن وغيرهم، أن تناضل ايضاً من اجل الحرية والاستقلال. لقد نما في هذا النضال وتوطد الشعور الوطني المحب للحرية لدى هذه الشعوب وتصلب الطابع الوطني الذي انعكس في تاريخها الوطني وثقافتها.

تعيش الجماهير الكادحة على مدى تاريخ التشكيلات المتناحرة في ظل اضطهاد الطبقات المستثمرة. ومع هذا فقد كانت ولا تزال من اخلص المدافعين عن الوطن وحريته واستقلاله ضد العدو الخارجي. هكذا كان الامر في روسيا وفرنسا، في نيدرلاند وايطاليا، وفي جميع البلاد حيث كان على الشعوب أن تدافع عن حريتها واستقلالها. لقد رأينا لدى دراسة هذا النضال، ان الطبقات المستثمرة تضع مصالحها الانانية والطبقية الضيقة فوق المصالح الوطنية. ويعرف التاريخ كثيراً من الامثلة التي باعت فيها الطبقات السائدة المستثمرة، وطنها للغزاة الاجانب. فإبان حرب المائة عام بين فرنسا وانكلترا، وخوفاً من ظفر الفلاحين المنتفضين باع الاقطاعيون الفرنسيون وطنهم للغزاة الذين تركوه خرابا؛ كما خانت الطبقات المسيطرة من اقطاعيين وفئة البرجوازيين، وطغمة الكنيسة الكاثوليكية، قضية التحرر الوطني، في العديد من المرات.

يمكن ان تتذكر الحرب التحررية الوطنية التي شنتها المستعمرات الانكليزية في اميركا ضد السيطرة الانكليزية في نهاية القرن الثامن عشر، وقد سمّى لينين حرب الشعب الاميركي هذه: «إحدى الحروب العظيمة، التحررية حقاً والثورية حقاً، التي كانت أمثالها قليلة بين ذلك العدد

الضخم من حروب النهب...[٥٣] ».

لقد زج قادة الحرب الرسميون ـ من تجار ومزارعين ـ الشعب في هذا النضال من اجل الاستقلال، لانه يؤمن مصالحهم، ولكنهم كانوا يخشون اعمال الجماهير الشعبية، الحاسمة، فسعوا للمصالحة مع الطبقات الانكليزية السائدة. كان القسم الاكبر من البرجوازية التجارية الاميركية والمزارعين ضد النضال التحرري، وكان ينادي بشرعية المستعمرين، وقدم له المساعدة، حتى انه حارب الى جانب المستعمرين. كتب وليم فوستر في هذا المجال ما يلي: كانت غالبية البرجوازية التجارية والمزارعين النين وقفوا الى جانب الثورة، من النهمين النموذجيين: تاجر كثير منهم بصفقات الأسلحة وقدموا للمحاربين أسلحة فاسدة، «كان هؤلاء أسلاف اولئك الابناء ـ الرأسماليين الذين باعوا الحكومة، فيما بعد، ابان الحرب الوطنية، أسلحة من نموذج قديم وخلال الحرب الاسبانية ـ الاميركية، قدموا للجيش اللحم الفاسد، وجنوا إبان الحربين العالميتين، المليارات من الطلبات الحربية »[٥٤].

كان الجيش الاساسي في الحرب الثورية الاميركية، من اجل الاستقلال، يتألف من صغار المزارعين والعمال من البحارة وحمالة المرافىء والحدادين والخبازين وعمال المرافىء والعمال غير المهرة. لقد امتلأت بهم صفوف منظمات «اولاد الحرية» وساروا الى أبعد بكثير من تلك الاهداف الضيقة، والمهمات التي طرحتها قيادة حرب الاستقلال الرسمية. سارت الجماهير الى ابعد مما سار اليه رؤساء البرجوازية، الراديكاليون من امثال، جيفرسون وادامس، فرانكلين، باين وغيرهم. وطرحت الجماهير الشعبية قضية توزيع اراضي كبار المزارعين، وحق الانتخاب العام، واقامة الجمهورية. في حين كان الرؤساء البرجوازيون، النين ترأسوا النضال من اجل الاستقلال، ضد توزيع الاراضي، واكتفوا بحق انتخابي محدود شرط

(٥٣) لينين ـ المؤلفات ـ الجزء ٢٨ ـ ص ٤٤.

(٥٤) وليم فوستر ـ تقرير تاريخ اميركا السياسي ص ٧٤.

وجود ملكية كبيرة. ومال قسم كبير من البرجوازية لاقامة السلطة المطلقة. لذلك، فلا عجب من ان هذه الثورة التي قامت ضد النير الاستعماري، لم تلغ في اميركا لا الرق ولا الملكية الزراعية الضخمة. وظل الزنوج الذين حاربوا بشجاعة في الجيش الاميركي من اجل الحرية والاستقلال، محرومين من الحقوق كما في السابق، في كثير من ولايات اميركا الشمالية. وفي نهاية الحروب الثورية من اجل الاستقلال في اميركا اللاتينية قرر مؤتمر عموم اميركا الذي عقد في بناما عام ١٨٢٦، تحريم تجارة الرقيق، الا ان ذلك القرار لم يطبق الا في كولومبيا. وكانت هايتي، البلد الوحيد الذي خلص من الرق بشكل حاسم بالطريقة الثورية عام ١٧٩٣. وقد تم ذلك بفضل العبيد انفسهم.

لقد استمر الرق في الولايات المتحدة الاميركية حتى عام ١٨٦٢ ولم يُقضَ عليه الا نتيجة الحرب الاهلية الدموية الطويلة بين الولايات الشمالية والجنوبية (التي كانت تعيش عهد الرق). وقد قررت الجماهير الشعبية نتائج هذا النضال كما كان عليه الحال في النضال من اجل الاستقلال، وبشكل خاص، العبيد الذين هبوا للنضال من اجل الحرية.

كتب جواهر لال نهرو عن الانتفاضة الشعبية العظيمة في الهند ضد السيطرة الانكليزية عام ١٨٥٧ ما يلي: «وضعت هذه الانتفاضة السلطات الانكليزية في موضع سيء جداً ولكنها سحقت في النهاية بمساعدة الجنود... وقد استخدم الزعماء الاقطاعيون شعور الجماهير في المناطق المشاعية، ولكنهم لم يكونوا على المستوى المطلوب، فلم يكن لديهم لا برامج ايجابية ولا مصالح مشتركة. كانوا قد لعبوا دورهم في التاريخ، ولم يكن لهم مكان في المستقبل. كثير منهم... وقف غير بعيد بانتظار الجهة التي ستحقق النصر. كما لعب عدد منهم دور «الكفيسلنغ» اما الاشراف الهنود، على العموم، قد وقفوا الى جانب الانكليز أو ساعدوهم، خوفاً من المخاطرة بمكتسباتهم أو بما استطاعوا الابقاء عليه منها»(٥٥).

(٥٥) نهرو ـ فتوحات الهند ١٩٥٥ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٦.

ان الجماهير الشعبية هي القوة الرئيسية في حركة التحرر ـ الوطنية، لان الاضطهاد القومي يقع على كاهلها قبل اي انسان آخر. اما قوة الحركة ـ التحررية ـ الوطنية، فتتعلق بالضبط، بمقدار مساهمة الجماهير الواسعة، فيها، مساهمة نشيطة. وهو امر يدركه جيداً قادة حركة التحرر الوطني، البارزون. وفي هذا المجال كتب جواهر لال نهرو في «تاريخ حياته» ما يلي:

«سارت حركة التحرر الوطني في الهند في عام ١٩٣٠ بعض الوقت مع تطور قوى الوطن الاجتماعية المتنامية واكتسبت، بفضل ذلك، قوة كبيرة وتحسست الواقع، نوعاً ما، وباختصار، سارت مع التاريخ... وطبيعي ان الفلاحين بدأوا يساندون حزب المؤتمر ومنحوه قوته الحقيقية؛ وقد شكلت الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة اساس صفوفه المقاتلة. حتى ان البرجوازية الكبيرة، القلقة من هذه الاتجاهات الجديدة، وجدت من مصلحتها مصادقة المؤتمر(٥٦)».

وفي اماكن عديدة من مؤلفات «تاريخ حياتي» و «فتوحات الهند» يؤكد نهرو ان الجماهير الشعبية الواسعة التي هبت للنضال في سبيل التحرر الوطني من السيطرة الاجنبية، هي التي منحت الحركة الوطنية الهندية قوتها وضمنت انتصارها.

ان طابع الاضطهاد القومي هو الذي يحدد طبقات الامة وفئاتها التي تعمل في الحركة الوطنية وتساهم فيها بنشاط. وغالباً ما يتحد الاضطهاد القومي بالاضطهاد الطبقي الذي ينعكس في اضطهاد برجوازية الامة الغريبة واقطاعييها. لذلك تستطيع الحركات الوطنية ان تأخذ طابعاً طبقياً واضحاً. لذلك كان نضال الفلاحين الاوكرانيين البيلوروسيين، ضد بولونيا البرجوازية على سبيل المثال، نضالا تحررياً ـ وطنيا، في الوقت نفسه.

وفي المستعمرات والبلدان التابعة حيث يتداخل الاضطهاد القومي

(٥٦) نهرو ـ تاريخ حياته ١٩٥٥، ص ٣٠٤.

الاقطاعي، يتداخل، حتماً النضال من اجل حرية الوطن والاستقلال بالنضال ضد الاقطاعية وبالثورة البرجوازية الديمقراطية والزراعية جاذباً الى حركة التحرر الوطني جماهير العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية الصغيرة والمتوسطة والانتلجنسيا.

فعصر الثورات البرجوازية ـ الديمقراطية مليء بالحركات الوطنية ـ التحررية التي تحررت نتيجتها من الأضطهاد الاجنبي شعوب اوروبا واميركا وآسيا واقامت دولها الوطنية. وكان لهذه الحركات اهمية تقدمية عظيمة. لقد قضت على الاحكام المطلقة الاقطاعية القائمة على اضطهاد الشعوب وأيدت النظم البرجوازية ـ الديمقراطية التي تعتبر تقدمية في حينها، وغرست في الشعوب تقاليد النضال التحرري، الوطنية والديمقراطية.

ساهمت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في دعم حركات التحرر الوطني لشعوب الدول التابعة والمستعمرات؛ كما قويت حركة التحرر الوطني، اكثر ايضاً، نتيجة انهيار الغزاة الفاشيين في الحرب العالمية الثانية.

جاء في تقرير المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي حول تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي «ان اقتلاع نظام الامبريالية، الاستعماري يعتبر الحدث التاريخي العام في المرحلة الاخيرة. لقد تكلل نضال الشعوب المستعمرة ونصف المستعمرة، التحرري الوطني بانتصارات عظيمة في مدى عشرات السنين الاخيرة: فأكثر من مليار و ٢٠٠ مليون انسان اي ما يقرب من نصف سكان العالم تحرروا من التبعية الاستعمارية ونصف الاستعمارية؛ والآن تطرح قضية تصفية النظام الاستعماري، تصفية كاملة. وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العالم، هي التي تنبأ بها لينين العظيم، مرحلة تساهم فيها شعوب الشرق، مساهمة نشيطة، في حل مصائر العالم كله، وتصبح عاملا جباراً جديداً في العلاقات الدولية».

ويصبح من الصعب جداً على الامبريالية تنفيذ المبدأ الذي كان سائداً في عهد الرق في امبراطورية روما: «فرق، تسد». كما تزداد

الصعوبة في توجيه بعض الشعوب، والقبائل، والاجناس والامم ضد بعضها البعض. وتنتشر، بشكل أوسع، الفكرة العظيمة، فكرة الصداقة والسلم بين الشعوب. لقد ولّت الى غير رجعة، تلك الأزمان، التي كان فيها الامبرياليون يبنون امبراطورياتهم بايدي الشعوب التي يضطهدونها، تلك الازمان التي كتب عنها الاقتصادي الانلكيزي ج.أ. غوبسون في كتابه «الامبريالية»:

ان قسماً كبيراً من المعارك التي ربحنا بها امبراطوريتنا الهندية، تم من قبل جنودنا الذين هم من السكان المحليين: ففي الهند، كما كانت الحال في مصر اخيرا، يرأس البريطانيون الجيوش الدائمة الكبيرة، وجميع الحروب، تقريباً، التي اكتسحنا، بنتيجتها، افريقيا، باستثناء قسمها الجنوبي، قامت على الجنود المحليين(٥٧).

والآن فان هؤلاء المواطنين المحليين، اما انهم قد طردوا المستعمرين من بلدهم او انهم يناضلون بحزم لطردهم منه. ان نجاحات وانتصارات حركات الشعوب، التحررية ـ الوطنية تعلل قبل كل شيء بكون الطبقة العاملة تقودها بشكل متعاظم؛ ان البروليتاريا التي ترص تحت قيادتها جماهير حلفائها الاقوياء، اي الفلاحين، تسعى الى شل تذبذب ومؤامرات البرجوازية الوطنية، التي تحاول، غالباً، عقد الصفقات مع الامبريالية الاجنبية. ان حركات التحرر الوطني التي تحرر الشعوب المضطهدة وتفتح امامها طريق الخلق التاريخي، الحر، تضعف قوى الامبريالية وتخدم قضية الدفاع عن السلم. في هذه الامور تكمن الاهمية التاريخية الشاملة لحركات التحرر الوطني.

وهكذا فان جماهير الشغيلة هي القوى المحركة التقدمية الاساسية في تطور المجتمع سياسياً. انها تتغلب على مقاومة القوى، والطبقات الرجعية التي تحاول تأخير حركة المجتمع، الى الامام، ودفعه الى الوراء. فنضال هذه الجماهير ضد المستثمرين، هو في نهاية المطاف، القوة الحاسمة لتطوره

(٥٧) المقطع مأخوذ من كتاب للينين ـ المؤلفات الجزء ٢٣، ص ٩٧.

السياسي، كله. ويؤدي هذا النضال الى تبدلات في نظام الدولة وفي مؤسساتها السياسية والحقوقية. انه ينتزع من الطبقات السائدة الاصلاحات المختلفة، ويؤدي في فترات الثورات الاجتماعية، الى قلب هذه الطبقات. ان الانتقال من نظام اجتماعي، قديم، مضى زمانه، الى نظام جديد، اكثر تقدمية، ـ من الرق الى الاقطاعية، ومن الاقطاعية الى الرأسمالية، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية ـ، يتم بشكل قانوني، عندما تنضج داخل النظام القديم، الظروف المادية للانقلاب الاجتماعي، وعلى كل حال فجميع الانقلابات الاجتماعية تتم نتيجة نضال الجماهير الشعبية ضد الطبقات الرجعية.

لقد نسفت جماهير الشغيلة بقيادة البروليتاريا، في عصرنا هذا، الرأسمالية في قسم كبير من الكرة الارضية، وهي تبني، بنجاح، المجتمع الاشتراكي. ان كل ما قلناه، عن دور الجماهير الشغيلة في تطور المجتمع، السياسي، لا يعني ابداً، اننا، نحن، الماركسيين ـ اللينينيين، ننفي، او نتجاهل، بشكل ما، او لا نقدر حق قدره، دور الطبقات السائدة، غير الشغيلة، المالكة، والمستثمرة، في التاريخ، في تطور المجتمع السياسي. ان كل طبقة مستثمِرة، مالكة، تكون في وقتها حاملة لعلاقات انتاجية جديدة اكثر تقدمية، وهي تلعب دوراً تقدمياً هاماً في التاريخ عندما تناضل ضد العلاقات الاجتماعية البالية، وتستخدم، حتى سلطة الدولة، من اجل توطيد الاشكال والنظم السياسية، والاقتصادية الجديدة، الاكثر تقدمية. لقد وجّه ماركس وانجلز، في «بيان الحزب الشيوعي» نقداً لاذعاً للنظام البرجوازي والايديولوجية البرجوازية، واظهرا، بالاضافة الى ذلك، ان البرجوازية لعبت دوراً ثورياً جدا في تطور المجتمع اقتصادياً، وفي النضال السياسي ضد الاقطاعية في القرون الوسطى. لقد تضمنت أيديولوجية الثوريين البرجوازيين الثورية الكثير من الافكار التي ساعدت على تنوير البروليتاريا من الوجهة السياسية. والآن تقف الطبقة العاملة باعتبارها الطبقة الاكثر تقدمية وثورية في المجتمع، ضد النظام الرأسمالي البالي والبرجوازية الامبريالية باعتبارها طبقة رجعية. الا ان البرجوازية

الوطنية وفئات محددة منها تلعب في كثير من الدول المتخلفة اقتصادياً، المستعمرة والتابعة، دوراً تقدمياً في النضال ضد الامبريالية والرأسمالية وفي سبيل الحرية الوطنية لبلادها واستقلالها. ان هذا الامر بالذات يشكل الاساس السياسي للجبهة الوطنية الواسعة، جبهة النضال ضد الامبريالية والاستعمار. فالبرجوازية الوطنية تساهم في جبهة وطنية موحدة الى جانب الطبقة العاملة والفلاحين وجماهير الشغيلة غير البروليتارية ،الاخرى، كما هو عليه الامر في الهند، واندونيسيا وبورما، وكذلك في مصر وغيرها من الدول العربية.

ان الجبهة الوطنية الموحدة او الحلف الموقت بين الطبقة العاملة والفلاحين والبرجوازية الوطنية، أو جزء من البرجوازية الوطنية، ضد الامبريالية الاجنبية يمكن ان تقوم حتى في مثل هذه الدول الرأسمالية، المتطورة والامبريالية من امثال اليابان وفرنسا، بسبب تبعية هذه الدول لرأسمال الولايات المتحدة الاميركية، الاحتكاري، الاقوى، ولأن سياسة امبريالي الولايات المتحدة تنتهك مصالح برجوازية هذه الدول الوطنية.

ان توضيح دور الطبقات السائدة، المستثمرة، في التاريخ، في تطور المجتمع سياسياً وروحياً، لا يدخل الآن في بحثنا هذا. لنلاحظ فقط ان هذه الطبقات هي التي تصرفت بمصائر البلادوالشعوب، في حين أبعدت الشغيلة، الجماهير المستثمَرة، بشتى الوسائل، عن السياسة، عن إدارة الدولة، ووقفت كما يقال « خارج السياسة »، و « خارج التاريخ » أو في مؤخرته. « فجماهير الشغيلة المسحوقة نتيجة الاضطهاد السياسي والقومي، استسلمت، في الزمن العادي، للنهب والاستثمار بشكل سلمي، نوعاً ما، ولم تنشط في حلبة التاريخ الا في فترات ثورية قصيرة. يلاحظ لينين، ان الفئات الدنيا من الشغيلة، كانت فيما مضى وكانها تقف « خارج السياسة » و « تنام تاريخياً » ولكنها كانت تستيقظ في فترات الثورة ».

ان دور الجماهير الشعبية « لا يبقى دون تبدل » لأن الجماهير الشعبية نفسها تتبدل، ويتبدل وضعها في المجتمع، بنمو وعيها ودرجة تنظيمها. فجماهير العبيد المحرومين من الحقوق، او جماهير الفلاحين

الاقنان، المسحوقين الجاهلين، أمر، والطبقة العاملة المعاصرة، المنظمة في اتحادات نقابية والتي تملك حزبها السياسي الثوري، وبرنامجها العلمي، المدروس، واستراتيجيتها وتكتيكها النضالي والتي تقود الشعب في نضاله من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية، أمر آخر. ان الطبقة العاملة قادرة على تنظيم جميع الشغيلة، والشعب كله، وتوجيه نضاله الى نسف سيطرة هؤلاء المستثمرين.

تدل تجربة جميع البلاد، التاريخية، على ان جماهير الشغيلة كانت بمثابة قوة الصدام، قوة «الانعطاف» في جميع الثورات والحركات الوطنية.

لقد هدمت الجماهير بضغطها الثوري، النظام الاقطاعي، ان ثمرات هذه الثورة، الرئيسية، وكذلك سلطة الدولة، كانت من نصيب البرجوازية.

عندما تقف الطبقة العاملة الثورية وطليعتها، الحزب الماركسي على رأس الجماهير الشعبية، تستطيع الشغيلة عندها، وعندها فقط، أن تتحرر من سائر انواع الاستثمار. ان تجربة شغيلة الاتحاد السوفياتي والصين ودول الديمقراطية الشعبية الاخرى، تعكس ذلك. ففي شخص العمال الاجراء، نشأت في اعماق المجتمع الرأسمالي، تلك الطبقة، التي اصبحت، نتيجة وضعها في عملية الانتاج الاجتماعية، ثورية وقادرة على ان تكون بانية المجتمع الاشتراكي الجديد، الذي ينهي استثمار الانسان للانسان. ففي ظل هيمنة البروليتاريا فقط، تتم حركات الجماهير الشغيلة، بما في ذلك، الثورات البرجوازية ـ الديمقراطية، لصالح الجماهير انفسهم، وليس لصالح البرجوازية وتصبح جميع ثمرات النضال التحرري الثوري في متناول الجماهير الشعبية نفسها وفي خدمتها في نضالها من اجل الاشتراكية.

ان نجاحات الاشتراكية والديمقراطية تنسف جميع النظريات الرجعية التي تقول ان الشعب لا يصلح للسياسة، او انه، كما يزعمون، غير مؤهل لادارة الدولة. في حين يدل التاريخ على ان الجماهير الشعبية هي بالضبط التي تنشىء الدولة الديمقراطية وتبني النظام الاجتماعي الاكثر تقدمية رغم

المقاومة الوحشية التي تبديها طبقات بلادها المستثمرة المقلوبة والرجعية العالمية.

٦ ـ دور الجماهير الشعبية في تطوير الثقافة الروحية

ان اكثر ايديولوجي البرجوازية، رجعية، هم وحدهم الذين ينفون الان بشكل مباشر وواضح دور الجماهير الشعبية في تطوير الانتاج المادي وحياة المجتمع، السياسية. فكثير من رجال الاجتماع والمؤرخين البرجوازيين مجبرون على الاعتراف حتى بتعاظم دور الجماهير الشعبية في الحياة السياسية. الا انهم يحاولون، بشتى الوسائل، التقليل من أهمية الانتاج المادي، والنضال الثوري الطبقي في تطور المجتمع. إلاّ أنهم يحاولون تصوير النضال الطبقي، والثورات، وحركات الجماهير الشعبية بشكل ظواهر غير قانونية، وغير طبيعية، وسلبية في التاريخ.

ينفي ايديولوجيو البرجوازية دور الجماهير الشعبية في تطوير الثقافة الروحية، بدون مواربة. إنهم يعتقدون أن تطوير الثقافة الروحية هو من عمل أفراد « مبدعين » من الطبقات المالكة، هو من عمل العباقرة، « النخبة » ـ « المنتقاة »، من الاقلية من « الارستقراطية الروحية ». ويعتقد ايديولوجيو البرجوازية ان الجماهير الشغيلة عبارة عن « مادة » جامدة، غير متحركة، عبارة عن برابرة يهدمون الحضارة. ان شوبنهاور ونيتشه، شبينغلر وبرغسون، ماكس شيلر واتمار شبان، واتباعهم في شخص العنصريين المعاصرين والشخصانيين والذرائعيين والوجوديين، يعتقدون ان نشر الثقافة وسط الجماهير يعني الحط من مستواها، وتدنيه، ونفياً للثقافة التي يعتقدون انها من صنع « العنصر الرفيع »، « عنصر السادة » وأنها ملك لهم. وهذه الأفكار والنظريات الرجعية، والمعادية للشعب المنتشرة في الدول الرأسمالية، تتسرب الى رؤوس الناس عن طريق النشر والراديو والتلفزيون والسينما والأدب والمسرح وغير ذلك.

فرجال الثقافة الحقيقية البارزون، العظام حقا وقفوا دائماً ضد امثال هذه النظريات الرجعية، واعترفوا بالاهمية الكبيرة للإبداع الشعبي في تطوير الثقافة الروحية للانسانية.

نشاط الشغيلة، الانتاجي وتطوير العلم

أشرنا سابقا الى ان الانتاج المادي الذي تنجزه الشغيلة هو اساس التطور الاجتماعي كله، بما في ذلك تطور حياة المجتمع الروحية او الثقافة الروحية. ففي عملية العمل تطور التفكير والكلام، المعرفة والكتابة. لقد اكتشف الانسان، في عملية العمل، خصائص الاشياء وظواهر الطبيعة وتعرف الى قوانينها، واخضع الطبيعة اليه. يؤكد المثاليون ان العلم هو نتاج «العقل الخالص» عقل العباقرة والمخترعين الذين يصنعون الاكتشافات والاختراعات في هدوء الغرف، في العزلة التامة عن الحياة الاجتماعية ومتطلبات الواقع.

لقد كتب إنجلس في معرض دحضه للنظرات المثالية حول تطور العلم والتكنيك ان العلم ليس نتاج «العقل الخالص» ابداً. لقد نشأت جميع العلوم وتطورت على اساس نشاط الناس العملي. عندما يوجد تطور الانتاج مطلباً تكنيكياً جديداً، يكون لهذا الامر اهمية كبيرة بالنسبة الى العلم والتكنيك، أكثر مما لعشرات الجامعات. نعم، والجامعات تستطيع ان تطور العلم فقط عندما ترتبط بالحياة، بالممارسة، بالانتاج.

فالانتاج يوجد الظروف والوسائل لتطوير العلم ويحدد مهماتها. ان الفيزياء المعاصرة والكيمياء والبيولوجيا والطب والرياضيات والفلك الخ، لا يمكن تصورها اذا لم تتوفر الآلات المعقدة والتجهيزات التكنيكية، التي لا تستطيع أن تقيم إلا الصناعة الحديثة فقط. ان جميع منجزات العلم والتكنيك، الجديدة كاكتشاف الراديوم والطاقة الذرية واختراع البرق والهاتف والطائرة والسيارة والراديو والسينما، والتلفزة والآلات الحاسبة،

وجدت كلها في نهاية المطاف نتيجة تطور الانتاج الصناعي الضخم الحديث. وهذا كله يعني ان النشاط الانتاجي لجماهير الشغيلة هو اساس التطور ومصدره الحيوي العميق.

وهذا لا ينفي اطلاقاً، دور العلماء البارزين والمخترعين في تطوير العلم والتكنيك، دور الناس العباقرة، الذين يصنعون الاكتشافات الجديدة المؤدية الى الانقلابات في العلم والتكنيك ولا يقلّل منه. كما لا يقلل هذا ما للعلم من دور عظيم في تطوير الانتاج المعاصر، ذلك ان التكنولوجيا المعاصرة تقوم على الاسس العلمية.

ينبغي عدم نسيان ان العدد الكبير من الاكتشافات والاختراعات تمت وتتم لا من قبل العلماء - المهنيين، بل من قبل العاملين المعروفين قليلا، من قبل أناس غير مشهورين في ميدان العلم، من قبل مخترعين من الشعب. لا يستطيع أحد ان يقول من «علّم» الناس الحصول على النار واستخدامها، من «أول» من اوجد القوس، والسهام والمطرقة، والفراعة، والمنشار، والمحراث، والمغزل، ونول النسيج والطاحونة اليدوية، والمائية، والهوائية، والدولاب، والعربة والمركب، وعدداً كبيراً من الاختراعات، لانها حصيلة نشاط اجيال عديدة.

صحيح، حقاً، ان تعاطي العلم وكذلك الفن والسياسة، كان في ظروف نظام عهد الرق، والاقطاعية والبرجوازية، حكراً او امتيازاً محصوراً بالطبقات المستثمرة، المالكة. كان الشغيلة محرومين من خيرات الثقافة، الاولية جداً، التي اوجدها نشاطهم وجهودهم وعبقريتهم. ان النظام الاستثماري سحق ويسحق، يشوه ويخنق ملايين المواهب الشعبية. ولكن، بغض النظر عن ذلك، خرج من الجماهير الشعبية العلماء البارزون، والمخترعون والفلاسفة والفنانون. فالعالم الروسي العظيم م.ف. لومونوسوف كان ابن فلاح وصياد سمك، ومخترع الآلة البخارية ي. ي. بولزونوف - ابن جندي، وقد صنع القنّان - الفلاحان ي.آ و م.ي تشيريبانوف اول قاطرة في روسيا. وكان العالم الفيزيائي الانكليزي الشهير فارادي ابن حداد وقد عمل نفسه في شبابه، مجلداً. وكان

الفلكي الالماني غاوس ـ ابن حرفي ، ومخترع الطباعة غوتنبرغ كان شاطف زجاج؛ والانكليزي جورج ستيفنسون مخترع القاطرة كان ابن سائق سيارة وكان في شبابه عاملا؛ ومخترع المركب البخاري فولتون كان صائغاً . وكان العالم البارز ومحوّل الطبيعة ميتشورين، بستانياً؛ وكان الممثل الروسي الشهير شيكبن والشاعر الاوكراييني شفتستينكو، ابني فلاحين قنّين ، وكانا هما نفسهما ، قنيين في البدء . وكان المؤلف الموسيقي الشهير بيرليوز ، ابن طبيب، وغايدي ـ ابن سائق عربة، وغليوك ـ ابن حارس احراج، وبيتهوفن ـ ابن مغنٍ، وشوبن ـ ابن حاكم. ومن الممكن ان نضيف الى هذه القائمة اسماء مشاهير العلماء والمخترعين والفنانين لدى جميع الشعوب. وكم من المخترعين والفنانين والموسيقيين والممثلين والمهندسين البنائين الذين اوجدوا الاعمال الشهيرة في ميدان الفن والتكنيك، والذين انبثقوا من اعماق جميع الشعوب، ظلوا غير معروفين! وكم انقرض من المواهب الشعبية بسبب الاضطهاد في عمق الرق، والاقطاعية والرأسمالية.

الشعب ـ مبدع الفن

لقد نشأ الفن، على غرار العلم، نتيجة نشاط الناس، العملي، وكان في البداية ، مرتبطاً بهذا النشاط ، ونما منه ، وخدمه . ان الاغاني ، لحنها وايقاعها ، تساعد الناس ، منذ قديم الزمان ، في عملهم القاسي ، وتبعث فيهم نشاطاً جديداً في اوقات الراحة؛ ان الاغاني تبعث الحماس في الناس فترفعهم الى مآثر العمل، والبطولات الحربية، الاغاني ترافق الناس الى المعارك.

فالملاحم الشعبية، والاغاني ، والرقصات ، والامثلة والاحاجي ، والفن المعماري الشعبي والفنون التطبيقية ، وكل ما يزين حياة الناس ـ وجد نتيجة ابداع الشعب، الجماعي. اذا تعرفنا على الفن التطبيقي الذي يزين حياة الناس (من ألبسة، وأدوات منزلية، ومطبخية، وأدوات عمل، وآلات موسيقية، ولعب، وهندسة منازل الفلاحين) واذا درسنا القيم الثقافية المتمركزة في البنايات الاجتماعية من معابد، وقلاع ومتاحف، او في قصور

اصحاب العبيد والاقطاعيين والرأسماليين، فسنكون امام ابداع الجماهير الشعبية.

في الحقيقة، لم تصنع هذه القيم الفنية الطبقات المستثمِرة الطفيلية، العاطلة، بل ايدي المهرة، الذهبية، المحبة للعمل والمنبثقة من الشعب!

تنتقل منتجات الفن الشعبي - من أغانٍ ورقصات، وقصص، وملاحم وأمثلة، ونقوش فنية، وتطريز، ولوحات، وفن معماري، وفن مسرحي الخ - من جيل الى جيل، ويدخل عليها التحسين المستمر؛ فيرمى منها ما هو غير صائب ويبقى القيم، والأرفع من وجهة نظر محتواه الفكري وصنعته.

لقد عمل رجال الثقافة والفن البارزون، باستمرار، على دراسة الابداع الشعبي الفني، وقد وجدوا، في هذا الابداع، مصدراً لا ينضب لإلهامهم ولنشاطهم الفني، فالشاعر الروسي العبقري، بوشكين درس، باستمرار، القصص الشعبية والاغاني، والاقوال الشعبية، ونصح جميع الكتاب الشباب ان يفعلوا ذلك لقد قدّر كل من بوشكين وغوغول وتورغنييف، ومن قبلهم لومونوسوف، غنى اللغة الروسية ودقتها، والقصص الروسية الشعبية والاغاني والرقصات، واقتبسوا النماذج الفنية من كنوز الشعر الشعبي الروسي، الفنية، وأغنوها بانتاجهم. قال المؤلف الروسي العبقري غلينكا: «الشعب يصنع الموسيقى، ونحن، الفنانين، نرتبها فقط» وكتب المؤلف الموسيقي سيروف ما يلي: «ان الاغاني الشعبية، مثلها مثل الآلات الموسيقية، ليست حصيلة مواهب موسيقية - مبدعة، بل هي نتاج الشعب كله».

ومن المعروف مدى حب مؤسس الادب السوفياتي م. غوركي، للإبداع الشعبي الفني والاهمية الكبيرة التي اولاه اياها. وقد كتب ما يلي: «الشعب ليس القوة التي توجد القيم المادية وحسب، بل انه مصدر القيم الروحية الوحيد والذي لا ينضب، انه الفيلسوف والشاعر الأول زمنياً وجمالياً وفي ميدان الابداع العبقري الذي ألف الملاحم العظيمة وكتب جميع

المؤلفات التراجيدية على الارض، ووضع تاريخ الثقافة العالمية، الذي هو أعظمها »[٥٨].

ففي أساس الكثير او بالاحرى في اساس ابرز انتاج الثقافة والفن العالميين الذي أنشأه فنانون عباقرة، تكمن النماذج الفنية، والتعميات التي اوجدها الابداع الشعبي الجماعي، والشعر الشعبي. وقد أشار غوركي في تأكيده ذلك، الى نماذج الميثولوجيا، والملاحم الشعبية والقصص والاغاني الخ. ونوَّه بالواقعية العميقة في انتاج مؤلفات الشعب، الفنية، والانعكاس الأمين لعمليات عمل وحياة المجتمع فيها. ففي الاساطير، والقصص، والحكايا البطولية والملاحم نرى بوضوح انعكاس اعمال الانسان في اختراع ادوات العمل، وفي تدجين الحيوانات، وفي اكتشاف الاعشاب العلاجية والادوية، كما يظهر ميل الناس الى تخفيف عبء اعمالهم. كتب غوركي في هذا المجال: لقد تجاهل مؤرخو ثقافة المشاعة البدائية تجاهلا تاماً الدلائل الواضحة جداً على التفكير المادي، الذي كان يستيقظ حتماً نتيجة عمليات العمل وكامل مجموع ظواهر الحياة الاجتماعية التي عاشها اناس ما قبل التاريخ[٥٩].

اي احساس جمالي واضح، وغني، وعميق وأي ذوق رفيع واية مبادىء رفيعة تتكشف في جميع الاعمال الفنية التي اوجدها الشعب الخلاق.

كتب جواهر لال نهرو يقول بشأن الإبداع الفني الباهر للشعب الهندي العظيم يقول: «في البنغال وفي غوجارات والجنوب تكتشف فجأة وبشعور مريح من الدهشة أيّ احساس عميق، وفني لا واعٍ في الوقت نفسه، يجَلله الفلاحون. اما الطبقات المتوسطة، فأمر آخر، لقد فقدت، على ما يظهر، جذورها التاريخية، وليس لديها اية تقاليد فنية، يمكن أن تتبعها »[٦٠].

(٥٨) أ. م. غوركي، مجموعة المؤلفات ـ الجزء ٢٤، ص ٢٦.
(٥٩) ا. م. غوركي ـ مجموعة المؤلفات ـ الجزء ٢٧، ص ٢٩٩.
(٦٠) جواهر لال نهرو «تاريخ حياته» ص ٤٢٦.

ان دراسة ابداع الشعب الفني الجماعي، تتمتع بأهمية كبيرة في دراسة بسيكولوجيا الجماهير الشعبية، وميولها، وآمالها المنبثقة من ظروف حياتها.

ويؤكد تاريخ ابداع الجماهير الشعبية، الفني، ان الانسانية الكادحة تأخذ عفوياً، في نظراتها، مواقف المادية. وفي الواقع، تتخلل الميثولوجيا الشعبية والملاحم الشعبية التي نشأت على أساسها، النظرة المادية ـ الساذجة الى العلم، بشكل عفوي.

لنأخذ على سبيل المثال «كاليفالا» .. فالاسس الاولى للعالم تظهر فيها بشكل النماذج الفنية الاسطورية التالية: تنزل إلهة الهواء المطر الى البحر حيث يؤرجحها الريح، وتضطرب الامواج؛ وهي هنا تخلق مغني الشعب الحكيم، القديم، فيانياميين، ثم يبدأ خلق العالم «على متن البحر الشفّاف، وفي سهول المياه المفتوحة». ومع ان هذا الخلق، اسطوري وعجيب وشعري، الا انه لم يتم من «لا شيء» كما تعلم الاديان، بل من مادة حقيقية. فالهواء والعناصر المائية هي التي تعتبر في «كاليفالا» بمثابة الاسس الاولى لتكوين العالم.

الهواء ـ ام كل ما هو على الارض
الاخ الاكبر ـ يدعى الماء
الاخ الاصغر للماء ـ الحديد
والاخ الاوسط ـ النار الحارقة

وجاء في المقطع السابع عشر ما يلي:

من نفسه انقسم الهواء
ومنه ظهر الماء
ومن الماء نشأت الارض
ومن الارض نمت المزروعات

ان هذا التقسيم الفني ـ الفلسفي الخاص لاسس الاشياء واسبابها يذكر بنظرة اليونان الاقدمين والماديين الهنود (الايليات والتشارفاكيين)

ان توضيح منشأ مختلف اشكال العمل الانساني ـ قطع الاخشاب وزراعة الحقول، صناعة المراكب، تحضير الخمور، مداواة الجروح، وانشاء الطاحونة العجيبة سامبو، من قبل المارينيين واخيراً صنع الآلة الموسيقية الكانتيلي من قبل فيانيامين كل هذا يعكس بشكل شعري حياة الشعب مبدع الملاحم. « فالكاليفالا » تعكس علاقة الشعب بالعمل، وحبه للموسيقى، افكاره عن منشأ الاشياء، وحبه للوطن. كان تعاطف الشعب وأبطال ملاحمه المحبوبين، عادة، الى جانب المضطهدين، الذين يقاسون من انعدام العدالة. وهذا تعبير عن نظرات الشعب الاخلاقية ـ الحقوقية.

عندما تدرس الماركسية الابداع الجماعي للشعب في تطوره التاريخي من المراتب الدنيا الى العليا وعبر صراع الجديد مع القديم، انما تقف ضد أمثلةٍ لإبداع الشعب، في هذا العصر او ذاك.

ان دور الجماهير الشعبية في حياة المجتمع المتناحر، الروحية، يتحدد بواقع ان الجماهير تكون واقعة تحت نير الاستثمار، وفقيرة من الوجهة الاقتصادية والسياسية والروحية بسبب مجمل نظام هذا المجتمع. الجماهير الشعبية تعيش في ظل اضطهاد الطبقات المستثمرة، ودولتها وايديولوجيتها وكنيستها، وديانتها، المسيطرة في المجتمع. اما نصف البشرية ـ النساء فتعيش، بالاضافة الى ذلك، في ظل نير عبودية المنزل والظلم، والمكانة غير المتساوية في العائلة والمجتمع. ويتحمل القسم الاعظم من الشعوب، الصغيرة والمتخلفة في تطورها، بشكل خاص، الاضطهاد القومي، الذي ازداد كثيراً في مرحلة الامبريالية. ولا يمكن لكل هذا الا ان يترك أثره على التكوين الروحي للشعوب وعلى وضعها النفسي ومن شأن هذا كله ان يسحق المبادرات التاريخية، والنشاط والطاقة المبدعة لدى الجماهير.

ان الابداع الفني الجماعي للجماهير الشعبية، يعكس في كل عصر تاريخي، حياة وآمال وميول الشعب في هذا العصر المعني بالذات، لذلك فهو يتطور بشكل جديد في الظروف الجديدة، ويعالج بشكل جديد أشكال الفن، القديمة، ويتممها بمحتوى فكري واجتماعي وجمالي، جديد. فالشعب، يعجز عن ايجاد نماذج فنية جديدة من نوع ابطال « الالياذة »، و« اوديسة »

و« كاليفـالا » في عصر الصحـافـة وآلات الطبـاعـة، والبخـار، والخطوط الحديدية والكهرباء، والطائرات النفاثة، والطاقة الذرية.

الفن الشعبي، هو انعكاس للحياة الشعبية ولنضال الشعب، ونضال الشعب التحرري هو الذي يبعث، بشكل خاص، هذا الفن ويغذيه. لقد كتب تشيرينشفسكي في هذا المجال ما يلي: « هناك فقط، حيث هزت العواطف القوية والكريمة جماهير الشعب، وحيث تمت الاحداث العظيمة بقوة الشعب، هناك فقط ظهرت القصائد الشعبية الفنية[٦١]. ثم جاء دوبروليوبوف، بعد تشيرنيشفسكي، فربط منشأ الملاحم الروسية بعصر النضال العنيد وللشعب كله، في سبيل الحرية، وضد الغزاة الاجانب، وضد هجمات التتر.

ولم تكتف الماركسية بملاحظة هذه الوقائع، بل كانت الاولى في اعطاء التوضيح العلمي، المادي، لجميع تناقضات الحياة المادية والروحية للشعوب والتشكيلات المتناحرة، وهكذا دل الشغيلة الى المخرج من العبودية الاقتصادية والسياسية والروحية، التي يثبتهم فيها نظام الملكية الخاصة والاستثمار. لقد كشفت الماركسية أهمية ظروف الحياة المادية، واسلوب انتاج الخيرات المادية والنظام الاقتصادي، في تطور الحياة الاجتماعية وبالتالي، في وعي الناس، الاجتماعي، ودور النضال الطبقي والدولة والبنيان الفوقي الايديولوجي للمجتمع في تطور الوعي الاجتماعي لدى مختلف طبقات المجتمع.

وبرهنت الماركسية على وجود ثقافتين في ظروف المجتمع المتناحر: ثقافة الطبقات السائدة المستثمِرة، وعناصر ثقافة الطبقات المضطهَدة المستثمَرة. ففي ظروف التشكيلات المتناحرة، يبدع العقل الانساني كله والعبقريات خيرات الثقافة من اجل اقلية ضئيلة فقط في المجتمع، في حين يبقى الشغيلة الذين هم مبدعو جميع الخيرات المادية والقيم الثقافية محرومين من الخيرات الاولية للثقافة ومعرضين للفقر والامية والجهل. ومع هذا

(٦١) تشيرنشفسكي ـ المؤلفات الكاملة ـ الجزء الثاني ص ٢٩٥.

فظروف حياة الشغيلة تخلق عندهم نفسية وأيديولوجية ديمقراطية تتجليان في تلك الثقافة التي ينشئها الشعب في ظل نير مجتمع عهد الرق والاقطاعية والبرجوازية.

لقد ابرز مؤسسو الماركسية ـ اللينينية اكثر من مرة الاهمية التقدمية لنشاط الشعب، الفني، ولأشعاره الثورية، وموسيقاه، وايدوا بحماس ولادة الفن البروليتاري، الثوري الجديد؛ لقد قيّم كل من ماركس وانجلس «أغنية النسّاجين» واعتبراها بمثابة نداء قتالي شجاع «تعلن البروليتاريا فيه، رأساً، وبتصميم واضح، بقوة وبدون مواربة، على الملأ أنها تعارض مجتمع الملكية الخاصة»[٦٢].

لقد ترجم إنجلس في كتابه «وضع الطبقة العاملة في انكلترا» الى اللغة الألمانية أشعاراً لشاعر الحركة الشارتية ميدا، عنوانها «الملك ـ النجار» يظهر فيها بوضوح احتجاج العمال على الاستثمار الرأسمالي. ولاحظ إنجلس ان هذا الشعر عبّر بصدق عن الأجواء النفسية المسيطرة في اوساط العمال الانكليز آنذاك. كما قدر ماركس وإنجلس تقديراً عاليا قصيدة هاينه، وفريليغرات وجيورجي فيرتا، الذين استطاعوا التعبير بصدق عن احساس ومزاج البروليتاريا او فئات الشغيلة القريبة منها. لقد أُخذ ماركس وإنجلس بقصيدة هانيه «النساجون». كما أطلق إنجلس على مؤلف «أغنية الصناع» جيورجي فيرتا، لقب أول وأشهر شاعر للبروليتاريا الألمانية.

وامتدح إنجلس في «رسائله من فوبرتال» عام ١٨٣٩ استخدام فريليغرات للقصص الشعبية الألمانية في إبداعه، ورأى في هذا نقطة قوة الشاعر التي ساعدته على «تقويم» طريقه وعلى التحرر من الرومنطيقية المجردة.

تعلمنا الماركسية ـ اللينينية الأخذ بكل ما هو تقدمي وديمقراطي ـ ثوري من عناصر الثقافة التي اوجدتها الجماهير الشعبية في ظل اضطهاد مجتمع الرق والاقطاعية والرأسمالية. وباستعمالها في بناء الثقافة الاشتراكية

(٦٢) ماركس، انجلس ـ المؤلفات ـ الاصدار الثاني الجزء الاول ص ٤٤٣.

للبروليتاريا العالمية. وتعلم الماركسية ـ اللينينية، الى هذا، بتمثل ثقافة الماضي، تمثلاً نقدياً، بما في ذلك الثقافة الثورية والفن في العصور الماضية. فشعر الماضي الثوري لم يعكس التطلعات التقدمية وحسب، بل الأوهام الخرافية لجماهير ذلك الزمن. فاغاني عصر الانتفاضات الفلاحية في القرون الوسطى، على سبيل المثال، وكذلك أغاني الشرقيين الثورية، تتضمن، كما لاحظ إنجلس، بقايا دينية. فأمام الطبقة العاملة، تطرح مهمات أعظم بكثير مما طرح امام الحركات الثورية السابقة كلها. ويمكنها *حل هذه المهمات، فقط، برفضها كل انواع التقدير الخرافي للقديم.*

ان البروليتاريا تتحرر، بحزم، من اوهام وبقايا الماضي وتنشىء فنها البروليتاري، الاشتراكي، الجديد، وآدابها الجديدة، وثقافتها، التي تساعدها على حل المهمات التاريخية العظيمة الجديدة.

نضال الجماهير الشعبية، الثوري، التحرري

وتطوير العلم والفن والثقافة

ان دور الجماهير الشعبية في تطوير الفن لا يتحدد بنشاطها الفني المستقل، ولا بالأعمال الفنية التي صنعها نتيجة ابداع الجماهير الجماعي او بأيدي معلمين انبثقوا من أعماق الشعب. ان الشعب يؤثر تأثيراً جباراً في تطوير الفن كله، بما في ذلك، المهن عن طريق نضاله الثوري التحرري، ومساهمته في الاحداث التاريخية الهامة.

يشير تاريخ الثقافة الى ان الاحداث التاريخية العظيمة التي تمت في حياة ونضال الجماهير الشعبية كانت السبب في كل نهوض عظيم طرأ على تطوير الفن.

ترى ما الذي استدعى نهوض الفن، والعلم والفلسفة والثقافة في اليونان القديمة في العصر الخامس ق.م؟ هل هو تطور الحرف والتجارة فقط؟ كلا، بالطبع. لقد استدعت هذا النهوض، قبل كل شيء، التناقضات الاجتماعية الحادة، والصراع القائم داخل البلد.

لقد عاشت اليونان قبل ذلك انقلاباً اجتماعياً عميقاً، هو الانتقال من نظام المشاعة ـ البدائية الى نظام عهد الرق الطبقي. فكان النهوض الاجتماعي، بما في ذلك نهوض الفن، مشروطاً ايضاً بنضال الاغريق القدامى، الطويل، من اجل حريتهم واستقلالهم، ضد الغزاة الفرس (٥٠٠ ـ ٤٤٩ ق.م). وهكذا ادى الانتصار على الاعداء الخارجيين وانهزام ارستقراطية اصحاب العبيد ونجاحات ديمقراطية الرق في المدن ـ الجمهورية، الى نهوض الفن والعلم والفلسفة. وقد عكس تطور الثقافة الروحية هذا النهوض العام للروح الوطنية، لدى الشعب، المدافع ببطولة عن حريته، عند فيرموبيل الذي حقق انتصارات كبيرة في المعارك ضد الفرس، وعند ماراثون (٤٩٠ ق.م) وفي جزر سالامين ٤٨٠ ق.م.) وعند مدينة سالامين (٤٤٩ ق.م.) لقد اوجد انتصار الجماهير الشعبية في نضالها من اجل الاستقلال المقدمات الضرورية لتطوير التجارة الداخلية والخارجية، ووسع افق الاغريق، ذلك انهم تعرفوا الى الثقافة المادية الروحية التي كانت موجودة لدى شعوب آسيا الوسطى ومصر، هذه الشعوب التي كانت آنذاك على درجة عالية نسبياً من الثقافة القديمة.

ترى ما الذي استدعى نهوض العلم والفن والثقافة في عصر ما يسمى رينسانس (النهضة) في فترة القرن الرابع عشر الى السابع عشر في دول اوروبا؟

ان تاريخ حياة البرجوازية، يفسره مثالياً بالاسباب العفوية، وعلى الغالب، بالميل الى «بعث» الثقافة والفن القديمين. ترى ما الذي جعل شعوب اوربا تفكر فجأة ببعث الثقافة القديمة؟ لكن المثاليين لا يعطون أي جواب مقنع على هذا السؤال، وهم عاجزون عن إعطائه. في الواقع، لقد حدث بعث وتطور الادب البرجوازي التقدمي آنذاك، والفن والثقافة على اساس نمو الرأسمالية في اعماق المجتمع الاقطاعي. فتطور الرأسمالية أدى الى تشكل الامم البرجوازية وخلق الصلات البرجوازية القومية والوعي البرجوازي القومي ونمو الانتلجنسيا التي تعادي الثقافة الاقطاعية البائرة المرتبطة بسيطرة الايديولوجية الدينية والعقائد الكنسية، ومحاكم التفتيش

والسكولاستيكا التي تخنق كل فكر حر. وقد انعكس، في بعث الاهتمام بالثقافة القديمة، سعي الانتلجنسيا البرجوازية في ان تجد في هذه الثقافة الافكار والتقاليد التي تساعدها على النضال ضد الثقافة الاقطاعية والكنيسة الكاثوليكية وتسلطها.

ولكن من عبد طريق تطور الرأسمالية داخل المجتمع الاقطاعي؟ من وجه الضربة الى الدولة الاقطاعية التي كانت ما تزال قوية آنذاك؟ انهم الفلاحون الاقنان والحرفيون، ولا أحد غيرهم.

لقد هزت انتفاضاتهم النظام الاقطاعي في اوروبا على مدى القرون الخامس والسادس والسابع والثامن عشر وصدعته وادت في نهاية المطاف الى الثورات البرجوازية، والبرجوازية - الديمقراطية، التي كان انتصارها بمثابة توطيد الرأسمالية. ان انتفاضة فلاحي انكلترا بقيادة يوت تايلر، وجاكيري في فرنسا[٦٣]، وحركة أتباع يان غوس والنَوَرْ في التشيك، والحرب الفلاحية في المانيا وثورة الهولنديين وقلب السيطرة الاسبانية في هولندا و «حرب العصي» التي قام بها فلاحو فنلندا في نهاية القرن السادس عشر ضد الاقطاعيين النمسويين وانتفاضات الفلاحين في روسيا تحت قيادة ايفان بولوتينكوف وسيتبان رازين وايميليان بوغاتشاييف، وعدد كبير من الحروب الفلاحية في الصين وغيرها من دول الشرق - هذه هي القوى الفعلية التي نسفت سيطرة الاقطاعية في العالم كله، مما أدى الى نهوض الايديولوجية الجديدة والثقافة التي تعبىء الشعب للنضال ضد الايديولوجية والثقافة الاقطاعية المسيطرة.

ان تطور الفن البرجوازي الجديد والفلسفة والعلم في هولندا في القرن السابع عشر، كان دون شك، نتيجة انتصار الطبقة الجديدة اي البرجوازية، التي قلبت سيطرة الحكم المطلق الاقطاعي الاسباني، بمساعدة الجماهير الشعبية التي هبت تدافع ببطولة عن حرية وطنها.

ان النهوض الجبار في تطور الثقافة الروسية الوطنية والفن

(٦٣) انتفاضات الفلاحين ضد الاشراف عام ١٣٥٨ - المعربة

والموسيقى والايديولوجية الثورية ـ الديمقراطية والفلسفة المادية منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى ثورة ١٩٠٥، كان قبل كل شيء، نتيجة تعاظم نضال الفلاحين ضد القنانة والحكم المطلق. وقد ادى هذا النضال الى تطور افكار راديشيف الثورية، والديسمبريين والديمقراطيين ـ الثوريين، وألهم فكرياً ابداع بوشكين وليرمنتوف وكالتسوف وغوغول ونيكراسوف ونوغنييف وليف تولستوي، وسالتيكوف ـ شدرين، وابداع الفنانين ـ الديمقراطيين والجوالين(٦٤) بشكل خاص، وريبن والابداع الموسيقى عند غلتينكـــــا ودارغوميجسكي وريمسكي ـ كورساكوف وموسورغسكي وبالاكيريف وبورودين.

كان راديشيف نبيلاً ثورياً، ولكنه طور تحت تأثير الانتفاضات الفلاحية في روسيا والثورة البرجوازية في فرنسا، افكار الديمقراطية الثورية ودعا الفلاحين الاقنان الى الثورة ضد نظام العبودية. ماذا يعني هذا الواقع؟ انه يعني ان نضال الجماهير الشعبية المضطهدة في سبيل الحرية يؤثر تأثيراً قوياً جداً في الاكثر شرفا وصدقا من المفكرين ممثلي الطبقات المسيطرة.

كتب ماركس وإنجلس في «بيان الحزب الشيوعي» انه في تلك الفترات التاريخية التي يقترب فيها النضال الطبقي من الانفجارات الثورية، يأخذ تفسخ الطبقة المسيطرة في المجتمع القديم ذلك الطابع العاصف، الامر الذي يجعل بعض ممثلي هذه الطبقة يتخلى عنها ويلتصق بالطبقة الثورية التي تملك المستقبل. ففي عصر الثورات البرجوازية، انتقل الى جانب الثورة أفضل أفراد القصور ورجال الفكر الأشراف. والآن فان افضل الناس من البرجوازية، وخاصة التقدميون من رجال الفكر الذين ارتقوا الى الفهم النظري لسير حركة التاريخ، ينتقلون الى جانب الطبقة العاملة ويساهمون بنشاط في النضال من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية.ان نضال الجماهير الشعبية الثوري يؤثر تأثيراً كبيراً على تطور

(٦٤) الجوالون: جمعية الرسامين في روسيا منذ القرن ١٩ حتى العشرين ـ المعربة.

الفكر الاجتاعي كله، على الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد السياسي ونظرية الدولة والحقوق والخ. ان أبرز ما في تطور الافكار الاجتاعية هو انعكاس نضال الجماهير الشعبية.

ان افكار منوري القرن الثامن عشر وافكار الاشتراكيين الطوباويين والديمقراطيين الثوريين هي انعكاس مباشر لنضال الجماهير الشعبية ضد الاقطاعية والرأسمالية. كان اكتشاف النضال الطبقي من قبل المؤرخين الفرنسيين من امثال مينيه وتييري وغيزو، انعكاساً لنضال الطبقات في فرنسا في فترة الثورة البرجوازية الفرنسية وبعد الثورة. كما ان ظهور الماركسية التي هي بمثابة الانقلاب الكبير في الفلسفة والاقتصاد السياسي ونظرية الاشتراكية، وفي كل العلوم المتعلقة بالمجتمع، كان نتيجة ظهور الطبقة العاملة الثورية في الميدان التاريخي، وتطور نضالها الطبقي. فنظرية الشيوعية العلمية ليست ملكا للعلماء الموهوبين فقط، ولمؤسسي هذه التعاليم، بل اصبحت في متناول ملايين الشغيلة. انها تتقدم الى الامام نتيجة التفكير الجماعي للبروليتاريا، الثورية وممثليها الطليعيين وتجربتهم، وللتفكير الجماعي للأحزاب الشيوعية ومراكزها القيادية النظرية والعملية. فالعقول البارزة ورجال الثقافة، يرتبطون بشعوبهم بهذا الشكل او ذاك، سواء ادركوا ذلك ام لم يدركوه. ومن خلالهم يؤثر الشعب، تأثيراً حاسماً في تطور الثقافة الروحية كله. لقد اشار لينين في محاضراته عن الابداع لدى ليف تولستوي ان افكار تولستوي وابداعه ما هو الا مرآة تعكس الثورة الفلاحية الروسية تعكس جوانبها القوية والضعيفة، رغم ان تولستوي نفسه، لم يفهم لا جوهر هذه الثورة ولا مهماتها.

«ان البحر الشعبي العظيم، الذي هاج حتى اعماقه ينعكس بجميع جوانبه الضعيفة والقوية في أفكار تولستوي»، هذا ما كتبه لينين ملاحظاً ان «جماهير الشعب الروسي، العديدة كلها، التي اصبحت لا تطيق مالكي الحياة المعاصرة، لكنها لم تصل بعد الى درجة النضال الواعي، الدؤوب، الذي يسير حتى النهاية، الى النضال الذي لا يرحم جندهم، هذه الجماهير

تحدثت بلسان تولستوي[٦٥] ». وحين رسم تولستوي الجزء الكامل من حياة روسيا، التاريخية، استطاع ان يطرح في اعماله من الامور العظيمة، كما وان يبلغ درجة من القوة الفنية جعلت انتاجه يحتل احد الاماكن الاولى في الثقافة الفنية العالمية. لقد كان عصر تحضير الثورات في احدى الدول المسحوقة من قبل اصحاب العبيد، بفضل تعاليم تولستوي العبقرية، بمثابة خطوة الى الامام في مجال التطور الفني للانسانية كلها »[٦٦].

لقد توصل تولستوي الى ذلك لانه استطاع بقوة أخاذة ان ينقل مزاج الجماهير الشعبية الواسعة المضطهدة من قبل نظام الاستعباد والحكم المطلق، وأن يرسم بوضوح الوضع الذي تعيش فيه، وان ينقل بصدق شعورها العفوي بالاحتجاج والغضب.

ان التحليل اللينيني لابداع تولستوي نموذج لدراسة دور الجماهير الشعبية في تطور حياة المجتمع الروحية، في تطور الثقافة والفن. ان علم التاريخ السوفياتي يعمل بتطبيقه هذه الطريقة، على كشف دور الجماهير الشعبية في تطوير الثقافة الروحية كشفاً أكثر عمقاً.

لقد ساهم علم التاريخ السوفياتي الذي يسير وفق نظرية وطريقة الماركسية - اللينينية، مساهمة كبيرة جداً في دراسة دور الجماهير الشعبية في التاريخ، ودورها في تطوير الانتاج المادي وحياة المجتمع السياسية والثقافية. لقد عمل علم التاريخ السوفياتي استناداً الى المواقف العلمية الحقة، ومن وجهة النظر الماركسية والديالكتيكية - المادية على اعادة دراسة العديد من الحوادث والوقائع وحركات تاريخ شعوب الوطن السوفياتي وغيرها من الدول، وقومها تقويماً جديداً. فالماركسية - اللينينية تسمح بالكشف بشكل عميق وواضح وتام، عن العلاقات المتبادلة في تاريخ الشعوب سواء منها الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية. وقد انجزت جميع هذه النجاحات من قبل علم التاريخ السوفياتي،

(٦٥) لينين - المؤلفات - الجزء ١٦، ص ٣٢٣.
(٦٦) .لينين - المؤلفات - الجزء ١٦ ص ٢٩٣.

خلال عملية نقد وتفنيد المفاهيم المثالية الكاذبة وغير العلمية الصادرة عن مؤرخي البرجوازية والملكية، الذين ينفون او يقللون من دور الجماهير الشعبية في التاريخ. لقد وجه العلم التاريخي السوفياتي انطلاقاً من مواقف المادية التاريخية، نقداً شديداً لنظريات المثالية عن « القهر » و« الاحتلال » ولعبادة الفرد التي شملت مختلف القياصرة، والقياديين والمحتلين. ودحض، في الوقت نفسه، تشويه المادية التاريخية بروح النظرية « الاقتصادية » وبروح الموضوعية البرجوازية والذاتية لنظرية م.ن. بكروفسكي، التاريخية.

لقد حطم علم التاريخ السوفياتي ما يسمى بالنظرية النورمانية عن نشوء الدولة الروسية التي هي عبارة عن واحدة من الاشكال الكثيرة لنظريات القهر المثالية، التي تنفي دور الجماهير الشعبية ودور نضالها الطبقي ضد الطبقة العليا المستثمرة التي وجدت في اعماق مجتمع السلافيين الشرقيين (اشراف القبائل وطبقة كبار ملاكي الاراضي - الاقطاعيين) وفي نشوء الدولة الروسية القديمة.

ان علم التاريخ، السوفياتي يولي دراسة حياة ونمط معيشة الجماهير الشعبية وثقافتها ونضالها التحرري اهمية كبيرة. انه يبرهن على عدم صحة مختلف النظريات الكوسموبوليتية التي تنفي خواص ثقافة الشعوب، المادية والروحية. لقد تغلب علم التاريخ السوفياتي على النظر الى ماضي شعوب الوطن السوفياتي، البطولي المجيد، نظرة عدمية، هذه النظرة التي كانت تنشرها مدرسة بكروفسكي وغيره من المؤرخين الكوسموبوليين. وقد وجه، الى جانب ذلك، ضربة الى النظرة البرجوازية - القومية التي تخفي التناقضات الطبقية في تاريخ الشعوب وثقافتها (« نظرية التيار الموحد » اللاعلمية) كما وجه ضربة لمعارضة ثقافة بعض الشعوب عموماً، بثقافة غيرها من الشعوب معارضة قومية ولاضفاء المثالية على حركات الماضي الرجعية. ويدرس علم التاريخ السوفياتي تاريخ شعوب الدول المضطهدة والمستعمرة. وقد سار المؤرخون السوفياتيون الخطوات الاولى في طريق وضع المؤلفات العلمية الشاملة في تاريخ شعوب الاتحاد السوفياتي وتوصلوا

الى بعض النتائج في ابحاث تاريخ الشعوب، بما في ذلك تاريخ الشعوب، الذي لم يدرس ابداً في السابق.

ان علم التاريخ السوفياتي يشن نضالا لا هوادة فيه ضد معارضة شعوب الغرب بشعوب الشرق، هـذه المعـارضـة الرجعيـة، العنصريـة واللاعلمية، والتي تزعم بان شعوب الشرق لا تملك ثقافتها الفريدة، الخاصة بها، والتي تزعم بان شعوب الشرق عاجزة عن إشادة دولتها الوطنية.

ان المؤرخين التقدميين، الذين يسترشدون بافكار الماركسية - اللينينية، العظيمة، يعيدون النظر بتاريخ تطور جميع الدول، ويعيدون تقويم هذا التاريخ على ضوء المادية التاريخية، موجهين انتباها خاصا الى دراسة دور الجماهير الشعبية، الحاسم، وعملها ونضالها التحرري. وهم يشنون نضالا ضارياً ضد النظريات الرجعية، نظريات «الابطال والجمهور» و «الفئة المختارة» وعبادة الفرد، هذه النظريات التي تقلل من دور الجماهير الشعبية في التاريخ وتنفيه. وانطلاقاً من واقع ما للفترات الثورية من اهمية عظمى في تاريخ المجتمع، يولي الماركسيون بالطبع انتباها كبيراً لدراسة دور الجماهير الشعبية في تاريخ الثورات الكبيرة كالثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر وثورة ١٨٤٨ في اوروبا وثورة ١٩٠٥ في روسيا، وثورة اكتوبر الاشتراكية - العظمى التي دشنت عهداً جديداً في تاريخ الانسانية، وكالثورات الشعبية المعادية للامبريالية في الصين وغيرها من الدول، والتي التحمت مع الثورات الاشتراكية للبروليتاريا.

ان الاعتراف بدور الجماهير الشعبية، الحاسم، في التاريخ، هو قوة وميزة علم المجتمع التقدمي المسترشد بتعاليم الماركسية - اللينينية.

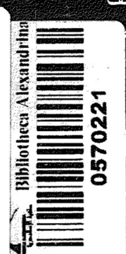
الفهرس

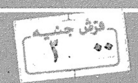
هذا الدفتر

ان قضية دور الجماهير الشعبية في التاريخ هي احدى القضايا الأساسية في النظرة الماركسية اللينينية عن العالم وفي علم المجتمع ، وهي بالإضافة إلى ذلك ، إحدى القضايا الجذرية في سياسة الحزب الشيوعي .

وحول قضية دور الجماهير الشعبية في التاريخ دار ويدور ولا سيا في عصرنا ، عصر الثورة الاشتراكية صراع ايديولوجي سياسي ضار بين قوى التقدم وقوى الرجعية .

هنا في هذا الدفتر يجد القارىء عرضاً مكثف لتحولات هذه القضية عبر التاريخ وفي العص الراهن .





الثمن ٨ ل . ل .
أو ما يعادلها